الجامعة اللبنانية
معهد العلوم الاجتماعية
مركز الأبحاث

صناعة
نسيج المضارب
من وبر الماعز في شحيم

إعداد
الباحث غازي شعبان

١٩٦٧

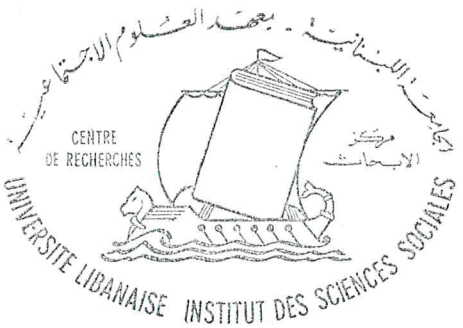

منشورات مركز الابحاث
١٩٦٧

الجامعة اللبنانية

معهد العلوم الاجتماعية

مركز الأبحاث

صناعة
نسيج المضارب
من وبر الماعز في شحيم

إعداد

الباحث غازي شعبان

١٩٦٧

تمهيد

تعتبر دراسة القرى اتجاهاً مستحدثاً بدأت الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية السير فيه منذ عهد قريب ، بعد ان كانت تقصر ابحاثها على المجتمعات المسماة بالبدائية فقط . وقد كان هذا الاتجاه مدعاة لبروز عدة تساؤلات بين علماء الانتروبولوجيا انفسهم تدور حول المسألة التالية : هل تعتبر دراسة القرى امتداداً لدراسة الشعوب البدائية ؟ وعليه هل يمكن تطبيق الطريقة الانتروبولوجية التقليدية بحذافيرها على هذه الدراسات ؟...

ان الواقع يظهر لنا ان المجتمعات القروية وان كانت تشابه المجتمعات البدائية من عدة نواح من حيث العلاقات المباشرة بين الافراد وصغر حجم السكان نسبياً الا انها تختلف عنها بشكل اساسي . فعنصر العزلة والاكتفاء الذاتي الذي تتسم به الشعوب البدائية لا يتوفر في المجتمعات القروية التي تبقى مرتبطة على اية حال بمجتمعات اخرى رئيسية تحدث فيها بصورة مباشرة او غير مباشرة تغييرات عديدة تجعل دراستها انتروبولوجيا ، اي بشكل مركز وشامل ، صعبة وتتعدى نطاقها الى دراسة المجتمعات الاخرى المهيمنة حتى تصل في النهاية الى دراسة الدولة بأسرها التي تنتمي اليها . لقد اقتضى هذا

الواقع تعديلاً في موضوع الدراسة الانتروبولوجية وفي الطريقة الانتروبولوجية نفسها . فلم تعد الدراسة المركزة ضرورية بل اصبح من الممكن دراسة بضع نواح فقط من الحياة الاجتماعية طالما ان الهدف الاساسي من الدراسات هو المقارنة بين سائر المجتمعات القروية . وباعتماد الانتروبولوجيا في دراسة القرى على الاحصاءات الرسمية والتاريخ اذا كان مسنداً الى مصادر موثوق بها ، والعمل الجمعي ، فانها قد اقتربت بذلك من علم الاجتماع (السوسيولوجيا) بشكل واضح .

ان الطريقة التي اعتمدتها لدراسة صناعة نسيج المضارب من وبر الماعز في شحيم كانت طريقة انتروبولوجية معدلة الى حد ما . يضاف الى ذلك ان هذا الموضوع يتخذ شكلاً خاصاً . فالبلدة ، شحيم ، عرضة للتغير الاجتماعي والثقافي على اثر تغير الوضع الاقتصادي القديم الذي احدث آثاراً هامة على سائر الاوضاع . لهذا برزت امامي صعوبة تحديد العناصر الثقافية الاساسية للبلدة بفعل تمازج الوضعين معاً : وضع شحيم السابق القائم كلياً على صناعة انسجة الشعر ووضع شحيم الحالي الذي يتجه الى النهج على نسق المجتمع المدني . وهذه الدراسة لو اجريت قبل بدء حدوث التغير لكانت اقرب الى الطريقة الانتروبولوجية التقليدية لان « شحيم الصناعة » كانت اكثر انعزالاً منها في الوقت الحاضر واقل اتصالاً بالخارج . ولقد حاولت في هذه الدراسة ان اشير بقدر الامكان الى نمط هذا التغير الثقافي مستعرضاً في الوقت ذاته الوضعين معاً . ولا شك ان هذه المقارنة بين الوضعين

تبقى بعيدة الى حد ما عن الدراسة المتكاملة للتغير الثقافي نظراً لضيق المجال للقيام بذلك وللخبرة الدراسية الكافية التي تتطلبها من الباحث.

لقد استخدمت كلمة « الثقافة » غالباً للاشارة احياناً الى ثقافات جزئية غير مستقلة . ان المفهوم الثقافي كما اردت ان اعبر عنه هو المفهوم الذي اشارت اليه الانتروبولوجيا الثقافية ، وهو مفهوم واسع شامل يقصد به جميع المعطيات التاريخية الاساسية التي تكون القواعد الاجتماعية والتقاليد والفنون والقيم والمعتقدات الوراثية والوسائل المادية ... الخ . ان الثقافات التي اوردتها ، وبصورة خاصة ثقافة شحيم ، تبقى ثقافات غير مستقلة وغير قائمة بذاتها لارتباطها بغيرها من الثقافات ولتعذر ايجاد الثقافة الاساسية التي يمكن ان يقال بأنها متكاملة من خلال دراسة بلدة واحدة .

الى جانب ذلك كان موضوع الدراسة متشعباً يبحث في عدة امور كما ان البلدة نفسها كانت كبيرة نسبياً للقيام بدراسة انتروبولوجية اكثر دقة . هذا بالاضافة الى الصعوبات التي صادفتها في انعدام المصادر التاريخية تقريباً وعدم وجود اية دراسة اجتماعية سابقة .

لقد حاولت بقدر الامكان ان افي الموضوع حقه بالبحث والدراسة والعناية ولا استطيع ان احكم شخصياً بمدى اهميته وفائدته ، غير انه بوسعي ان اتذرع في حال وجود نقص او تقصير في الدراسة ، بأنه على اي حال بحثي الاول .

القسم الأول

البدو

كان سكان شبه الجزيرة العربية منذ القديم ، ولا يزالون ، مقسمين الى قسمين : البدو والحضر . ومع ان افراد هاتين الفئتين ينتمون الى الثقافة ذاتها التي بوسعنا ان ندعوها ، بشيء من التوسع ، الثقافة العربية الا انهم مع ذلك يختلفون فيما بينهم من عدة وجوه تتأتى في الاصل من درجة ارتباط كل منهما بالبيئة .

فالحضر ، هم سكان المدن ، الذين استقروا فيها وسكنوا البيوت المبنية وزاولوا فيما بينهم مختلف النشاطات البشرية من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها . . . اما البدو فهم اولئك القوم الرحل الذين لا يستقرون في مكان معين اكثر من فترة محدودة يعودون بعدها لينتقلوا الى مكان آخر . . . وهكذا دواليك على مدار السنة .

غير ان البدو ، الذين نحن بصددهم ، ليسوا وقفاً على سكان الجزيرة العربية ، التي ذكرناها هنا على سبيل المثال فقط . فالواقع ان الصحراء التي تعتبر كموطن للبداوة تبلغ مساحتها ثلث مساحة اليابسة من الكرة الارضية وهي متنوعة الاراضي تختلف باختلاف المناطق ، الا انها تميل

في الغالب الى ان تكون اراض صخرية . ومهما تنوعت هـذه الاراضي الصحراوية فانها تشترك جميعاً بكونها جدباء ، قفراء ، تفتقر الى المياه والنبات ، وتسود فيها عوامل مناخية متطرفة ، قاسية على وجه الاجمال .

كذلك ، فالبدو ينتشرون في معظم انحاء العالم ، يسكنون الخيم ويحيون حياة قائمة على عدم الاستقرار . والخيم كثيرة ومتعددة ، منها ما هو مصنوع من قماش ومنها ما هو مصنوع من قش او عيدان ، ومنها ما هو مصنوع من جلد . . . الخ . الا ان الخيم المصنوعة من القماش هي الاكثر انتشاراً بين البدو ، والقماش المصنوع من وبر الماعز هو السائد في معظم هذه الخيم . وقد حاول احد الانتروبولوجيين ان يحدد الخيم المصنوعة من وبر الماعز فقط ، بالنسبة لنماذجها التي تختلف من بلد لآخر باختلاف الثقافات ، فأورد لائحة تشتمل على ست عشرة خيمة متميزة الواحدة عن الاخرى تبعاً للشكل وكيفية ترابط كل من النسيج والاعمدة والاوتاد والحبال . فكانت النماذج التالية :

- الخيمة المراكشية
- الخيمة الخاصة بالمنطقة الواقعة بين مراكش والصحراء
- الخيمة الموريتانية
- الخيمة الجزائرية
- الخيمة التونسية

- الخيمة الطرابلسية (بالنسبة لطراباس الغرب)
- الخيمة الليبية
- الخيمة المصرية
- الخيمة العربية (وقد شمل بها المنطقة المؤلفة من شبه جزيرة العرب بالاجمـــال والعراق وسوريا والاردن وفلسطين)
- الخيمة الاناضولية
- الخيمة الكردية
- الخيمة الايرانية
- الخيمة الافغانستانية
- الخيمة العائدة للمنطقة الواقعة شمالي غرب الهند
- الخيمة التيبتية
- الخيمة الاوروبية

ان موضوع بحثنا هذا ، يتعلق بالبدو العرب . والواقع ان كلمة « بدوي » هي في الاصل مقتصرة على البدوي العربي « ساكن الباديـة اي الصحراء » ، الا ان اللفظ قد عم الفئات الاخرى على سبيل التسمية فقط . والبدو ، وسنعني بهم من الآن وصاعداً البدو العرب ، ينتشرون في الصحاري المتعددة التي توجد في البلاد العربية واهمها : الربـــع الخـالي وصحراء النفوذ والبادية والجزيرة وصحراء سيناء . فهناك

بدو في كل من المملكة العربية السعودية والبحرين وقطر وحضرموت واليمن والكويت والعراق وسوريا والاردن وسيناء . والصحاري العربية هي صحاري رملية تتوزع اراضيها بين سهول رملية شاسعة ورقع صخرية جرداء وتتميز بالجفاف والمناخ «الصحراوي» المتطرف (القيظ في النهار والبرد القارس في الليل) وندرة النباتات وندرة المياه . فليس هناك اي نهر يمر فيها والمياه الوحيدة التي توجد فيها تأتي بعد الامطار والسيول وتتركز في بعض الآبار المتفرقة .

ويعتمد البدو في معيشتهم بصورة شبه وحيدة على الماشية التي تتألف من الخيل والابل والاغنام . فالماشية هي كل ثروة البدوي في دنياه . فهو يشرب لبنها ويأكل لحمها ويكتسي بما يحيكه من اوبارها ، ويكسب من ثمنها فيبيع ما يستخلص منها من سمن ولحم وصوف ووبر ، ويتخذ من برازها وقوداً يصطلي بناره في ايام الشتاء ويطبخ عليها طعامه ، وهي بالاضافة الى ذلك وسيلة الانتقال الوحيدة لديه ، فعليها يحمل اثقاله وعليها يسافر وعليها يقوم بغزو اعدائه . والابل وهي اصل الماشية اصبر الحيوانات ، خاصة فيما يتعلق بصبرها على العطش اذ بوسعها ان تصمد عدة ايام بدون ان تشرب ، واكثرها نفعاً للبدوي واقلها لصاحبها مؤونة ، لذا قيل فيها بأنها « سفن الصحراء » .

والبدو ، من جهة اخرى ، لا يزاولون الاعمال الزراعية اطلاقاً ، يستثنى من ذلك بدو سيناء الذين يزرعون قوتاً وبعد هطول المطر

القمح والذرة والشعير والتبغ ، والبطيخ في الصيف ، وهم ينظرون باحتقار الى الاعمال اليدوية والزراعية ، يضاف الى ذلك ضيق المجال لمزاولتها ، لذلك فان نشاطهم يقتصر فقط على تربية الماشية والاهتمام بشؤونها ، فالبدوي لا يرتاح حتى يرتاح بعيره شبعاً وريا . من اجل ذلك فهم يبحثون لها في الصحاري عن الرقع الخصبة التي تنمو فيها الاعشاب بعد فترة مطيرة ، ليستقروا فيها زمناً معيناً حتى اذا نفذ الكلأ عادوا من جديد يبحثون عن مكان آخر نما فيه كلأ .

ان اقتصاداً كهذا ، يقوم في الاساس على البحث عن الطعام للماشية لهو اقتصاد مترجرج متروك لرحمة الاقدار ، وبالتحديد لرحمة العوامل المناخية . فالمطر عنوان للخير عند البدو تقام له الاحتفالات عند ابتدائه . وهطوله بغزارة في سنة ما يعني الحصول على موسم جيد اذ تمتلىء الآبار وبطون الاودية بالماء ، وتنمو الاعشاب في البراري فتغتذي بها الماشية وتنتج وتتكاثر ويصبح لدى البدوي فائض من الوفر يتيح له شراء ما يلزمه من سلع ومواد واغذية في المدن . وفي بعض سنوات الربيع الزاهرة ، يتضاعف الانتاج فتلد الاغنام مرتين في الموسم الواحد . اما انحباس المطر في سنة اخرى فمعناه اصابة الموسم برمته : فالماشية تهزل ولا تعود تقدر على المسير ، ويقل انتاجها وقد لا تلد ، والبدوي يمتنع عن الابتعاد كثيراً عن المرابع خوف العطش . فلن يكون هناك فائض عن الاستهلاك ، بل ضيق وعسر والابقاء على الحالة السابقة كما هي ، لذا يقال عن البدوي في هذه الحالة بانه تعلق بذيل الماشية اي

انـــه يتركها تذهب حيثما شاءت ويقتفي خطاها . وسنوات الجدب حيث يمتنع سقوط المطر تقريباً هي نذير بحصول المجاعة .

فحيـــاة البداوة تخفي من خلال مظهرها الخارجي الذي يوحي بالسعادة وراحة البال ازمات اقتصادية حادة وبؤس شديد . ومعيشة البدوي بعيدة عما يمكن ان نسميه بالرفاه ومقتصرة فقط على ضروريات الحياة ، وطعامه بسيط للغاية وهو يتالف في مختلف المناطق من الرز والتمر واللبن واللحم . يضاف الى ذلـــك انتشار الاوبئة والامراض الناتجـة عن انعدام النظافة وعـدم توفر الشروط الصحية الضرورية نتيجة لجهـل بالغ وامية ساحقة . ومع ذلك فالبدوي بصورة عامة ، راض بحالته ومطمئن اليها ، ظاهر الارتياح والسرور في كل الاوقات الا في سني الجدب والمحل طبعاً ، وسر ارتياحه يكمن في شعوره بأنه خفيف الحمل ، يرحل متى شاء واينما شاء ، بعيد عن كل مـــا يحجز حريته من قيود القرى والمدن .

ان نسق الحياة البدوية القائم عـــلى التجوال يقف حائلاً دون استقرار البدو وسكناهم في بيوت مبنية . لذلك اعتمدوا الخيم بيوتاً لهم .

تقوم الخيمة على اعمدة في الوسط ، واوتاد على الاطراف . فيمد النسيج فوق الاعمدة ويشد الى الاوتاد بواسطة الحبال . يشتري البدو جميع اجزاء الخيمة من المدن ، فيأتي بالاعمدة والاوتاد الخشبية والحبال المصنوعة من القنب في الغالب وقطع النسيج ، التي يسميها « شكاكك

الشعر » والخيوط الثخينة المغزولة من وبر الماعز ، ثم يعهد الى امرأته بوصل قطع النسيج بعضها بالبعض الآخر بواسطة خيوط الشعر ، فتقوم هذه بالعمل الذي يسمى « الخياطة » تحت اشراف امرأة مسنة خبيرة ، وعند ذاك يبدأ العمل بنصب الخيمة .

يتوسع البدو في بيوتهم كما يتوسع الحضر في منازلهم ، كل حسب مقدرته ومركزه . والخيمة تدل على شخص صاحبها فهي تتدرج من الخيمة الصغيرة التي لا تكاد تسع اصحابها الى خيمة كبيرة تقسم الى شبه غرف مستقلة تفصل بينها حواجز مصنوعة من الشعر او القصب ، ويخصص كل قسم لغرض معين فواحد للضيوف وآخر للنوم والثالث للطبخ . وبصورة عامة كلما كان مركز البدوي في قبيلته رفيعاً كانت خيمته اطول . والخيمة الكبرى هي خيمة شيخ القبيلة ، فعدد حبالها يوازي الضعف والاوتاد مغروسة اكثر في الارض وفيها جناح خاص يدعى مضيف الشيخ اشبه ما يكون بالمجلس او البرلمان للبدو ، يجتمعون فيه ويتباحثون في امور الماشية ويتسقطون اخبار القبائل الاخرى .

يتألف نسيج الخيم في معظم الحالات من وبر الماعز . ان وبر الجمال يصلح ايضاً لصنع النسيج ، ويستعمل في عدة انحاء ، وهو يمتاز بالنعومة وخفة الوزن مع درجة كبيرة من الدفء ولونه غالباً بني ، الا ان نسيجه يبقى دون نسيج شعر الماعز من حيث المتانة ، وهو بالاضافة الى ذلك يستلزم عناية اكثر في الغزل والنسج . وهناك نوع

من وبر الجمال متين لكنه خشن . كذلك يصلح صوف الغنم لصنع النسيج ، وهو يستعمل غالباً كخيم صيفية بيضاء ، غير ان الصوف يرتخي بسرعة فيفقد النسيج متانته وتماسكه ، والحبال التي تصنع من صوف الغنم تنقطع بسهولة ، لذا كان من الضروري ادخال عناصر اخرى مع الصوف ، هي شعر الماعز عادة ، لكي يزيد تماسك النسيج . اما وبر الماعز وهو القاسم المشترك الذي يدخل دائماً في نسيج الخيم ، فيمكن ان يستعمل لوحده ، وحتى عندما يكون نسيج الخيمة محاكاً من غير شعر الماعز فيجب ان يكون السقف على الاقل مصنوعاً منه .

ان الخيمة المصنوعة من وبر الماعز ، وهي ما يسمى ببيت الشعر ، تتمتع ، استناداً لما يرويه بعض شهود العيان ولما ذكر في كثير من الدراسات ، بمزايا عديدة . فهي في الشتاء تحول دون تسرب مياه الامطار الى داخل الخيمة وذلك بفعل تقلص النسيج وتلاصقه عند المطر ، ومقدرته الفائقة على امتصاص المياه ، حتى ان الخيمة بعد هطول المطر تشكل عبئاً ثقيلاً تنوء بحمله الجمال عند السفر . اما في اوقات الصحو ، اذا بقيت منصوبة لان بعض البدو كاولئك الموجودين في سينا يخباونها في الصيف والخريف ، فيعود النسيج الى التراخي ويتيح للهواء ان ينفذ الى الداخل . وعلى كل ففي الصيف ترفع اجزاء الخيمة الجانبية فلا يتبقى ظاهراً منها سوى السقف . ويقول البعض ممن جرب سكن بيوت الشعر انها جد مريحة خاصة اذا الحقت بالرواقات في الاسفل لتمنع دخول الشتاء والهواء الى الداخل ، بالاضافة الى ذلك

يتمتع شعر الماعز بمتانة كبيرة وتدوم الخيمة المصنوعة منه اكثر ، من اربعة الى عشر سنوات تبعاً لجودة الحياكة وجودة الشعر نفسه .

والحياة البدوية قائمـــة على نظام اجتماعي متميز مبني على العرف والتقاليد . وللبدو خصال وعادات امتلأت بها بطون الكتب ، نذكر منها حب الضيافة والمبالغة باكرام الضيف - الاباء - حب الحريـــة والنفور من الحياة الحضريـة المقيدة - الشورى في الشؤون العامة - الافتخار بالنسب - القيام بالغزو لاظهار الشجاعة والبأس اكثر من جني المنفعة - الاخـــذ بالثأر - الفروسية اظهار الحماية والذود عن الاهل والقبيلة - التعلق بالاشعار ونظم القصائد ... الخ . قد يكون بعض من هذه الخصال جيداً كما قد يقال عن بعضه بأنه بدائي خشن وعلى كل فلسنا هنا بمعرض تقييم الاخلاق البدويـة ، انما اوردنا ذلـك لتبيان القيم والعادات التي تستتبعها حياة البداوة والتي تتشابه في مختلف الاماكن التي يقطن فيها البدو .

ان البدوي يقبـــل اذن على شراء مختلف السلع والادوات التي يحتاجها بما فيها اجزاء الخيمة من المدن عندما يكون الموسم مقبلاً . وقد أدى احتكاك البدو المستمر بالمراكز الحضرية الى حدوث تغييرات عديدة في الثقافة البدوية . فهم يشترون من السلع والمواد مـــا كان مجهولاً لديهم في السابق . ونذكر على سبيل المثال مادتي الشاي والسكر اللتين يتزايـــد استعمالهما يوماً بعد يوم في بعض الاماكن ولا يزال

انتشارهما مستمراً في الاماكن الاخرى . كما ان هناك قسماً من البدو اخذ يسكن البيوت المبنية خلافاً لما يعهد فيهم . ورغم نفور البدو من ركوب السيارات وتحميل اثقالهم عليها ، فانهم يقبلون احياناً بجعل الشيوخ منهم يركبونها في الاسفار البعيدة بينما يتابع الآخرون السفر على الجمـــال . والحكومات العربية تتدخل اكثر فاكثر في شؤون البدو ، بانشاء مراكز للسلطة على مقربة منهم . وقد افلحت الحكومة العراقيـة بجعلهم يعقدون اتفاقية فيما بينهم لمنع الغزو المتبادل بـين القبائل ، وقد توقف الغزو في الواقع الى حد ما . كما قامت الجمهورية العربية المتحدة طيلة السنين الفائتة بعدد من المشاريع لتوطين البدو في صحراء سيناء وجعلهم يحترفون الزراعة والصناعة ، وقد وفقت الى ذلك جزئياً . وكذلك تقوم حكومة العربية السعودية والحكومة السورية وغيرها بوضع مشاريع مماثلة .

الى جانب احتكاك البدو بالثقافات الحضرية العربية ، اخذوا منذ فترة يحتكون بالثقافات الغربية بطريقة مباشرة او غير مباشرة فشركات النفط والتنقيب عن المعادن قـد تغلغلت في الصحراء ولا تزال تتابع توسعها يوماً بعد يوم . والبدو بحكم تجوالهم الدائب يمرون غالباً بمنشآت هذه الشركات وقد يحصل احياناً اتصال مباشر بينهم وبين العاملين فيها . وهناك قسم من البدو اخذ يعمل في شركات النفط فيقومون بمهام يتعلق اكثرها بالحراسة ، وهذا مما يتلاءم مع

مشاعرهم التقليدية في الذود عن الحمى . كما ان هناك فئة اخرى تسكن في الشوادر نظراً لتدني ثمن الشادر بالنسبة لثمن بيت الشعر .

ويبدو ان الاثر الذي ينتج عن احتكاك البدو بالثقافات الغربية هو اشد من الاثر الذي تمارسه المدن العربية . فالبدو الذين لا يزالون منذ آلاف السنين يعيشون بعزلة في الصحراء محافظين على حياتهم التقليدية المتوارثة يتعرضون اليوم لغزو داخلي يتغلغل عبر الصحراء ذاتها .

بوسعنا بعد كل هذا ان نتساءل : هل ان حياة البداوة التي تتأرجح تحت وطأة هذه العوامل ستصمد وتستمر رغم ذلك ام انها ستزول في النهاية . ان التغيرات التي اصابت الثقافة البدوية وان تكن لا تزال جزئية الى حد ما الا انها قد حصلت والتفاعل الثقافي لا زال سارياً ، فهل ستستمر هذه التغيرات حتى اختفاء البداوة نهائياً من على سطح الأرض ؟ انه سؤال لا نستطيع التكهن بحله بل نترك الإجابة عليه لعامل الزمن ولعوامل التطور في المستقبل . وما يهمنا ان نذكره في هذا المجال هو ان صناعة نسيج المضارب تبقى مستمرة طالما كان هناك بدو . وفي شحيم لا تزال صناعة نسيج الشعر قائمة منذ القديم لتلبية حاجة البدو الى الخيم ولانتاج منسوجات اخرى من الشعر كذلك لا علاقة لها بالخيم كما سنرى فيما بعد .

القسم الثاني

انسجة الشعر

يختلف البدو فيما بينهم ، من حيث كيفية حصولهم على انسجة المضارب ، باختلاف المناطق التي يوجدون فيها ، وبالتحديد باختلاف الاقطار التي ينتمون اليها . وهناك مدن في كل قطر يقطنه بدو تشتهر بوجود متاجر لبيوت الشعر فيها ، يعرفها البدو عادة فيؤمونها لشراء النسيج منها . من هذه المدن مثلاً :

- في سوريا : القامشلي ، الحسكة ، حلب ، دير الزور ، حمص ، حماه . . .
- في العراق : كربلاء ، بغداد .
- في الأردن : عمان ...
- . . . . . .

واصحاب هذه المتاجر يحصلون على انسجة الشعر من التجار المتجولين الذين يقصدون مراكز الصناعة ليجمعوا النسيج من الصناع. والبلد الذي تقوم فيه صناعة يكتفي عادة بالانتاج المحلي للنسيج ، اما

البلد الذي لا يصنع فيه النسيج فيستورده من الخارج ، من الأقطار العربية اولاً ثم من الاقطار الأخرى . فالمملكة العربية السعودية مثلاً تستورد الانسجة من سوريا ولبنان ، وقد اخذت في الآونة الأخيرة تستورد من الباكستان « الشقاق » الكراتشية التي تتميز بالسماكة وثقل الوزن ولا يشتريها البدو الرحل بل البدو الاكثر استقراراً . كما ان العلاقات الخارجية بين البلدان تؤثر الى حد كبير على نسق الاستيراد وحركة السوق . اذ ان سوق النسيج غير ثابت وهو يتقلب من سنة الى اخرى . فسوريا مثلاً منعت استيراد النسيج من لبنان اثناء القطيعة بين البلدين . والسعودية التي لم تكن في الماضي تعرف شيئاً عن النسيج الشحيمي اخذت منـذ وقت قريب تستورده من لبنان ، وكذلك الحال بالنسبة لقطر وغيرها ... وعمان اليوم اصبحت مركزاً بالغ الاهمية لاستيراد النسيج واعادة تصدير قسم آخر منه الى الخارج بعد ان كانت قبل اقفال حدود فلسطين محدودة السوق . الخ... ويقوم الاستيراد اليوم بصورة رئيسيـة على الانتاج السوري الذي لم يتعرض للهبوط كالانتاج اللبناني بل بقي مستمراً ومتزايداً وتستورد من سوريا كل من المملكة السعودية والاردن والكويت وغيرها اما لبنان فيصدر معظم انتاجه الى عمان وهناك قسم آخر أخـذ يشق طريقه منذ وقت قريب الى شبه الجزيرة ، وخاصة الى السعودية وقطر .

ان ذلك يتعلق فقـط بالمصادر الخارجية للنسيج بالنسبة للنطاق البدوي . والحقيقة انه بالاضافة الى هذه المصادر ، فان البدو انفسهم

يقومون ايضاً بصنع الانسجة لمضاربهم الا ان صناعتهم هذه قد اصبحت ضعيفة وهي تتقهقر يوماً بعد يوم ، ويبدو انها لم تتغير منذ اجيال كثيرة . لذلك يعتبر المورد الخارجي للنسيج المورد الرئيسي بالقياس الى الانتاج البدوي الضئيل نسبياً . ومما لا شك فيه ان الصناعة قد نشأت في الأساس لدى البدو انفسهم منذ ان كانت البداوة كتلبية لحاجتهم الملحة الى الخيم وبقيت محصورة فيهم مدة طويلة حتى انتقلت من ثم الى الخارج لتزاول على ادوات جديدة وبطرق مختلفة . اما تاريخ هذا الانتقال فغير معروف بالضبط لندرة المصادر التاريخية بهذا الصدد ، ومن المحتمل ان يكون قد حصل مع هجرات القبائل اثناء الفتح العربي . وعلى كل فان الصناعة بعد استقرارها في الخارج نمت هناك بقدر ما ضعفت لدى البدو . ويعود ذلك الى عدة عوامل اهمها :

١ ـ ان الصناعة اليدوية للنسيج لا تستطيع تلبية حاجات البدو جميعهم لأن كثيراً منهم لا يملكون قطعان ماعز للحصول على الشعر اللازم ، كما انهم بالاضافة الى ذلك يميلون الى تربية الاغنام اكثر مما يميلون الى تربية الماعز .

٢ ـ ان النسيج الذي يصنع في الخارج يبقى افضل بكثير من النسيج الذي يحيكه البدو من حيث الجودة ومن حيث المتانة . فهذا الاخير ركيك وتتخلله فجوات كثيرة كما ان انتاجه بطيء .

٣ ـ لا يتسع المجال امام البدو لممارسة الصناعة بشكل جدي منظم، فحياة الحل والترحال التي يحيونها تجعل انصرافهم اليها متقطعاً ، بينما تحتاج صناعة النسيج الى وقت كاف والى شيء من الاستقرار .

والصناعة البدوية للنسيج بدائية وهي مقتصرة على النساء ، وهؤلاء يقمن اولاً بندف الشعر بواسطة قضيب خشبي ثم يغزلنه على مغزل خاص يسمى « مردن » شبيه بمغزل الصوف القديم ويقمن بعد ذلك بحياكته على الشكل التالي :

تركز على الارض عارضتان متقابلتان ومتوازيتان من الخشب ، بحيث تكونا مرتفعتين قليلاً عن سطح الارض . ثم تدق على طول العارضتين مجموعة من الأوتاد او المسامير على بعد متساو . وبعد ذلك تمد خيوط « السدى » المغزولة بين العارضتين فتربط من كل طرف بأحد المسامير المتقابلة . ويؤتى بعد ذلك بخيوط « اللحمة » المغزولة فتدخلها المرأة بواسطة قرن غزال بين ختوط السدى بطريقة متعاكسة (يكون خيط اللحمة فوق احد خيوط السدى ثم تحت الخيط الذي يلي ففوق الخيط الثالث ...) وكلما فرغت المرأة من ادخال خيط اللحمة تدقه بواسطة قرن غزال ايضاً دقاً خفيفاً . وهكذا دواليك حتى تحيك النسيج كله .

ان النسيج الذي ينتج عن هذه الحياكة هو بالاجمال نسيج هزيل

وهو اشبه بنسيج القومات (التي سنراها بعد قليل) اي يتخلله كثير من الثغرات والفراغ وهو بالاضافة الى ذلك بطيء الانتاج ، والمرأة اذا استمرت بالعمل من الصباح حتى المساء فلا تستطيع ان تحيك اكثر من مترين من القماش .

اما صناعة النسيج التي تجرى في الخارج فتتم على ادوات مختلفة مستحدثه وهي الدولاب للغزل والنول « العربي » للحياكة ، والندافة تتم كذلك بوسائل اخرى . وتنتشر هذه الصناعة في عدد كبير من البلاد ، اذكر منها :

- لبنان ، وتزاول في شحيم ، كوسبا ، نيحا ، بيت شباب ، معلقة زحلة ، بعلبك .
- سوريا ، وتزاول في يبرود ، دمشق ، قسم من حلب ، ريحا ، الشغر . . . .
- العراق ، وتزاول في كربلاء وبغداد ...
- مصر ، وتزاول في الفيوم ...

كما ان هناك صناعات في الباكستان واليونان ولا شك في انه توجد صناعة في بلدان اخرى . ان تشابه الادوات التي تستعمل في جميع هذه البلدان يدل على انها قد انتقلت اليها من مصدر واحد . اما عن هذا المصدر فليست هناك اية مستندات تاريخية تنبئنا عنه وارجح ان يكون الى الشرق ، في بلد توجد فيه صناعة مزدهرة للأنسجة الاخرى ،

وذلك تمشياً مع السير التاريخي للشعوب التي كانت تنزح بصورة عامة من الشرق الى الغرب .

وبالاضافة الى ذلك فان صناعة انسجة الشعر على هذه الادوات لا تقتصر فقط على حياكة الانسجة للمضارب . ففي مصر مثلاً يصنعون من شعر الماعز نوعاً من السجاد الصغير يدعى « كليم » . وفي حاصبيا ، في لبنان ، يصنعون من شعر الماعز المغزول غزلاً رفيعاً نوعاً من « العبي » . وسأحاول فيما يلي ان اصنف الانسجة التي تصنع من شعر الماعز ، او التي يكون شعر الماعز المادة الرئيسية فيها ، والتي تتم على الادوات نفسها ، من حيث صلتها ببيوت الشعر . وتسهيلاً للبحث سأقسم هذه الانسجة الى قسمين رئيسيين :

١ ـ الانسجة المعدة لتكوين المضارب .

٢ ـ الانسجة التي لا علاقة لها بتكوين المضارب .

١ ـ الانسجة المعدة لتكوين المضارب :

لكي يتم بناء المضرب ، اي الخيمة ، يجب ان يتوفر لذلك عدد معين من قطع النسيج المختلفة ، اذ انه لكل قطعة وظيفة خاصة تؤديها في الخيمة . هذه القطع هي ، كما تسمى بالنسبة لصناع شحيم ، الشقة ـ الطريقة ـ المحل ـ الرواق .

أ ـ **الشقة :**

جمعها شقاق ، وهي قطعة من النسيج يتراوح عرضها ما بين ٦٥ و٧٠ سم . اما طولها فيختلف باختلاف طول المضرب ، لان بيوت البـــدو ، كما سبق واشرت ، تختلف طولاً واتساعاً باختلاف مركز البدوي في القبيلة . وقماش الشقة مدقوق جيداً ، اي انه لا تظهر فيه اية ثقوب او فجوات ، ويتميز بالنعومة والمتانـــة . والشقاق سوداء اللون ، دائماً تقريباً ، لان البدو يفضلون اللون الاسود للخيم . وتوصل الشقاق بعضها مع البعض الآخر ، او مع الطريقة او المخل ، بواسطة خيط تخين من وبر الماعز ، وذلك قبـــل بناء الخيمة بفترة قصيرة ، وتسمى هذه العملية بالخياطة وتقوم بها النساء . والشقاق هي القطع الاساسية والرئيسية في الخيمة ، فهي التي تؤلـــف القسم الاكبر من جدرانها وسقفها .

ب - **الطريقة :**

وهي قطعة نسيج يبلغ عرضها حوالي الثلاثين سنتمتراً ، امـــا طولها فمختلف وهي عادة اقل من طول الشقة . اما نسيجها فهو اسمك قليلاً من نسيج الشقة واقل نعومة ، ولون الطريقة اما ان يكون اسود او ابرش (رمادي) اذ انها تنصب داخل الخيمة . والطريقة تخاط بالشقة ، او بالاحرى تخاط عليها ، فتكون بمثابة بطانة داخلية ترتكز عليها عمدان الخيمة ، وذلك كيلا تتصل رؤوس العمدان بالشقاق وتعرضها للتلف السريع .

ج المخـــل :

وهو قطعة نسيج لا يزيد عرضها عن الثلاثين سنتمتراً ، وقـــد يكون اقل من ذلك . ونسيج المخل كنسيج الشقة تماماً الا انه قـــد يكون ابرش احياناً . والمخل في الخيمة يقابل الطريقة بالنسبة للشقة . فهو يخاط على طول المواضع التي توصل بها شقتين فيشكل بذلك غلافاً خارجياً يحول دون تسرب مياه الامطار ، من خلال الثغرات التي تظهر في الموضع الذي توصل فيه الشقتان ، الى داخل الخيمة .

د – الرواق :

وهو قطعـة نسيج تخاط باطراف الخيمة ، في الاسفل وتكون حاجزاً واقياً يمنع دخول الرياح والامطار واشعة الشمس الى داخل الخيمة . لذلك فنسيج الرواق كنسيج الشقة تماماً وطوله يساوي طول الشقة اما عرضه فيعادل نصف عرض الشقة . ويتميز الرواق بزخرفة بيضاء في الوسط تسمى « ميل » تمتد على طول الرواق يحيط بهـــا اللون الاسود من الجانبين .

٢ – الانسجة التي لا علاقة لها بالضارب :

ان هذه الانسجة لا تدخل ضمناً في تركيب الخيمة ، الا انها قـد تستعمل من قبل البدو كما تستعمل من قبل غيرهم . من هذه الانسجة اذكر : البسط – القومات – العدل – الخراجات – المخالي ...

أ - البسط :

جمع بساط وهي السجاد القروي ، والبساط هو قطعة نسيجية تحاك من وبر الماعز الصرف او من مزيج من وبر الماعز وصوف الغنم او احياناً من صوف الغنم فقط . ونسيجه كنسيج الشقة تماماً اما ابعاده ، طوله وعرضه ، فمتغيرة وتختلف تبعاً للطالب . ويتميز البساط بالوانه المتعددة وزخرفاته الكثيرة وهي تبدو دائماً على شكل خطوط طولية ذات تعرجات وبوسع الصانع ان يتفنن كما يشاء في حياكة البسط من حيث تنوع الالوان وتعدد الزخرفات . ويتخذ البساط عادة لون الشعر الطبيعي وعندما يدخله اللون الاحمر ، وهو مقتصر على لون الشعر الطبيعي الذي تمتاز به بعض انواع الماعز التي تسمى الماعز الشامية ، فانه يصبح اكثر قيمة ، لندرة اللون الاحمر الطبيعي . وتستخدم البسط في المنازل كسجاد وتفرش على ارض الغرفة بحيث تتحاذى كل قطعة او « فجة » كما تسمى في شحيم ، منها مع الاخرى بشكل طولي . واذا كانت البسط مصنوعة من شعر الماعز فقط فانها تدوم طويلاً .

ب - القومات :

جمع قومة ، وهي القفف التي تستخدم في المعاصر لاستخراج الزيت من حبوب الزيتون بعد هرسها . ويتم ذلك بأن تمد طبقة رقيقة من الزيتون المهروس ، على القومة ثم تطوى اطراف القومة

التي بقيت خالية على الطبقة وتوضع على قاعدة مكبس الزيت ، وبعد ذلك تكدس القومات المحشوة بالزيتون المهروس بعضها فوق البعض الآخر وعندما تبلغ ارتفاعاً معيناً ينزل المكبس ليضغط عليها من الاعلى ضغطاً شديداً فيتسرب الزيت من خلال نسيج القومات الى وعـــاء خاص وتبقى في داخلها كتلة مسطحة جافة تعرف « بالجفت » وتستعمل كوقود . والقومة قطعة نسيج مربعة الشكل وهي تقتطع من القطعة الرئيسية التي تحاك دفعـــة واحدة ، اما حياكتها فتختلف قليلاً من حياكة الشقة ، كما ان نسيجها غـــير مدقوق مثل نسيج الشقة ، اي تتخلله ثقوب وفجوات كثيرة وذلك لاتاحة تسرب الزيت منها . ولون القومات مختلف الا انه غالباً ما يكون رمادياً (ابرش) .

ج – العدل :

جمع عديلة ، وهي الاكياس التي توضع فيهـا الغلال ، من حبوب وغيرهـا ، وتحمل عادة على الدواب . وكانت صناعة العـدل منتشرة جداً في السابق لقلة عدد السيارات ، امـا اليوم فقد ضعفت الى حد كبير ، ونسيج العديلة كنسيج الشقة الا انـه اسمك واخشن ولونه عادة ابرش .

د – الخراجات :

جمع خرج وهو مـــا يوضع على ظهر الحمار او البغـل لتحميل الاغراض فيه . ونسيجه سميك ولونه اسود او ابرش .

هـ المخالي :

جمع مخلاية ، وهي الاكياس التي تعلق على رقاب الخيل والدواب لتأكل منها ، ونسيجها معيك ولونها اسود او ابرش .

ذكرت اعلاه ان صناعة انسجة الشعر تزاول في عدد من القرى اللبنانية بالاضافة الى شحيم .

والحقيقة ان الصناعة ترتدي في شحيم بصورة خاصة طابعاً من الاهمية لا نجده في هذه القرى . ففي كوسبا (الكورة) كانت الصناعة مزدهرة جداً في الماضي وكانت تشتمل على انسجة المضارب والانسجة الاخرى ، الا انها تأخرت كثيراً بعد ذلك وهي مقتصرة اليوم على صنع قفف الزيت (القومات) فقط . وكذلك الحال في بيت شباب التي تصنع قفف الزيت ايضاً . اما في بعلبك ومعلقة زحلة ونيحا فالصناعة ثانوية بحيث لا يتجاوز عدد العاملين في كل منها اربعة او خمسة عمال .

وسنرى في القسم التالي ما هي احوال الصناعة حالياً في شحيم .

القسم الثالث

الصناعة في شحيم
وأوضاع العاملين فيها

ان قيام صناعة لانسجة المضارب في بلد ما يتوقف الى حد كبير على وجود بدو فيه ، اما صناعة الانسجة الاخرى غير المعدة للمضارب فيمكن ان تنشأ في هذا البلد كما قد تنشأ في بلد آخر لا يوجد فيه بدو . اما في شحيم فالحالة مختلفة عن ذلك بعض الشيء . ذلك ان الصناعة فيها تشتمل على جميع انواع الأنسجة المصنوعة من وبر الماعز من الشقة الى الطريقة الى الرواق الى المخل الى البسط الى القومات الى المخالي الى الخراجات الى العدل . . . على الرغم من بعد شحيم عن مواطن البدو من جهة واقتصار الصناعة عليها من دون سائر قرى الاقليم من جهة اخرى . لذلك يبدو ان قيام الصناعة في شحيم قد نشأ عن مسببات اخرى . والواقع ان هناك احتمالين لتفسير وصول الصناعة الى شحيم : فأما ان تكون قد انتقلت اليها على اثر احتكاك ثقافي حصل بين فئة من سكانها وفئة اخرى تعمل في الصناعة ، واما

* وردت في هذا القسم بعض الاصطلاحات الفنية العائدة للصناعة ذكرت بالتفصيل في القسم الرابع .

ان يكون الاهالي او على الاقل قسم منهم قد جلبوها معهم من مكان ما بعد نزوحهم منه واستقرارهم في شحيم .

يقوم الاحتمال الاول على نقل الصناعة من قبـــل الأهالي لتلبية حاجتهم في الحصول على بعض الأنسجة المصنوعة من الشعر كالقومات مثلاً لاستخدمها في معاصر الزيت نظراً لأهمية الزيتون في السابق ووفرة عدد اشجاره ، اذ يعتبر الزيتون مورداً زراعياً رئيسياً . استناداً الى هذا الاحتمال بوسعنا ان نفترض ان المكان الذي جاءت منه الصناعة هو أحد مناطق سوريا التي تعمل بهـا لأن ذلك أقرب الى التصور والبديهي نظراً لسهولة وامكانية الاتصال بين الجهتين ، الا ان ذلك يبقى من قبيل الظن .

امـا الاحتمال الثاني فيقوم على افتراض صعوبة نقل الصناعة من مكان لآخر كعنصر ثقافي بسيط . ذلك انه عدا عن الحصول عـــلى الأدوات اللازمة ، فان ممارسة الصناعة تتطلب من العاملين بها خبرة طويلة ومعرفة كافية بأوضاعها الخارجية وأحوال السوق . لذلك يرجح أن يكون نقل الصناعة الى شحيم قد تم على أثر هجرة قام بها السكان الأصليون أو قسم منهم من مكان كانوا يعملون فيه بالصناعة ليستقروا فيا بعـــد في البلدة . وصناع شحيم يعتقدون انهم ورثوا الصناعة عن أجدادهم العرب الأوائل الذين نزحوا الى لبنان منذ عدة قرون ويعودون بأصلها الى الإمام علي بن ابي طالب . والحقيقة أنه

يستفاد من تركيب شحيم العائلي ان الأهالي لم يستقروا في البلدة دفعة واحدة . كما ان هناك اتجاهاً بين افراد العائلات المختلفة في شحيم لارجاع اصل كل عائلة الى بلد معين او قبيلة معروفة ، وقد يكون دلك نتيجة لتوارث ثقافي من الأب الى الابن على مر الأجيال . ان وجود الصناعة في انحاء لبنانية مختلفة ومتباعدة هو بمثابة تأكيد لنظرية نقل الصناعة الى لبنان من قبل القبائل العربية على وجه التأكيد التي قامت بسلسلة هجرات متتابعة منذ بدء الفتح العربي . والواقع ان هذه الاستنتاجات القائمة على الافتراض مردها يعود الى ندرة المصادر التاريخية ان لم اقل الى انعدامها ، كما ان المصادر الأحدث عهداً لا تشير الى هذا الموضوع الا بتلميحات عابرة .

وعلى كل فان توسع البحث في اصل الصناعة كدراسة لتاريخ وضع سابق يبدو قليل الأهمية نظراً لتغير هذا الوضع بتغير احوال الصناعة وبروز اتجاه ثقافي جديد في البلدة .

فالصناعة اليوم تمر في فترة حاسمة في شحيم ، وهي تعاني حالياً من هبوط بالغ وانخفاض ملموس في عدد العاملين وذلك في مجال المقارنة بوضعها المزدهر في الماضي ومدى اهميتها بالنسبة للأهالي . ونستطيع ان نعتبر اقفال حدود فلسطين في عام ١٩٤٧ كحد يفصل بين عهدين مختلفين في تاريخ الصناعة . فقبل هذا التاريخ ومنذ عهد بعيد ولا شك كان جميع سكان شحيم يعملون في الصناعة . فالجيل القديم من السكان الحاليين كله كان يعمل بها قبل ان تبدأ بوادر التغير الاولى

بالظهور وينقسم الجيل نفسه الى فئتين : فئـــة استمرت تعمل في الصناعة وفئة أُخرى انصرفت للعمل في مجالات أُخرى .

ذلك ان الصناعة في الماضي ، استناداً لأقوال جميع المسنين في البلدة ، كانت الركن الاقتصادي الأساسي لسكان شحيم . فكان الجميع رجالاً ونساءً واولاداً يزاولونها طيلة الوقت وكذلك الطلاب عنـــد عودتهم من المدارس واثناء العطلة الصيفية . وكانت دواليب الغزل تحيط بشحيم من كل جانب وانوال الحياكة دائبـة العمل والمنادف اليدوية لا تخلو من الصناع طيلة اليوم . وكان السكان بالاضافة الى العمل في شحيم ينزحون بصورة مؤقتة خلال فصل الصيف الى فلسطين وسوريا والأردن ويقوموا بالعمـــل هناك ليصبحوا على مقربة من مواطن البدو فيؤمنون بذلك الحصول على سعر افضل من السعر في شحيم اذ يتخلصون من ارباح الوسطاء . وكانت فلسطين مركز عمل جيـد بالنسبة للشحيميين ، فكان الصناع وعائلاتهم ، ويبدو انه لم يكن يعمـل في فلسطين سوى الشحيميين ، يذهبون الى جهات بيسان وطبريا ويافا وغزة وينقلون معهم الدواليب والأنوال ويعرضون النسيج بعد صنعه في الأسواق اليومية كسوق خان يونس وبير السبع وسوق السجيعة وغيرهـــا فيأتي البدو ليشتروا النسيج مباشرة من الصناع الشحيميين . وعـدا عن أسواق فلسطين كان صناع شحيم ينزحون الى سوريا والاردن . ففي سوريا كانوا يذهبون بصورة خاصة الى جوبر من ضواحي دمشق والقنيطرة ، وكان التجار من

حماة وحلب وغيرها يأتون اليهم ليشتروا النسيج منهم ، الا اذا كان السوق كاسداً فكان صناع شحيم ينقلون الانتاج الى متاجر الخيم في المدن السورية المختلفة . وقد قامت بوجه الصناع الشحيميين في سوريا منافسة شديدة من قبل الصناع السوريين الذين كانوا يبيعون النسيج للبدو بسعر أقل . كما ان الحكومة السورية قامت بسلسلة اجراءات لحماية الصناعة لديها ففرضت رسوماً جمركية عالية على استيراد المنسوجات من الخارج (اكثر من ٣٠٪) بينما اعفت استيراد الشعر الخام من الرسوم . حتى ان التجار السوريين قد امتنعوا تقريباً عن المجيء الى شحيم لشراء النسيج منها . واخيراً في الأردن ، لا يزال قسم ضئيل من صناع شحيم يذهبون اليها في فترات معينة من السنة للعمل هناك . ويقال ان منهم من استوطن الأردن بصورة دائمة .

ان اقفال حدود فلسطين والتدابير السورية لحماية صناعتها من نسيج المضارب أدى الى توقف قسم كبير من الانتاج عن التصريف سواء اكان انتاجاً محلياً أم مصنوعاً خارج شحيم . وقد نتج عن ذلك تضعضع اوضاع العاملين في شحيم . ومع ان التصريف لم يتوقف تماماً الا ان ترجرج السوق وقلة استقراره جعل الكثيرين من الصناع يتجهون لمزاولة نشاطات أُخرى توفر لهم ضمانات افضل وايراداً اكثر ثباتاً . والواقع ان قسماً آخر قد انصرف عن المهنة فيما بعد تحت وطأة التغيير الثقافي الذي اصاب البلدة بدل الاتجاه الثقافي القديم القائم على الصناعة باتجاه ثقافي آخر قائم على العمل في حقل الاستخدام .

والصناعة اليوم في وضع افضل ، وهي تشكو من قلة العاملين اكثر مما تشكو من قلة التصريف . فتجار النسيج يأتون في أغلب الأحيان بأنفسهم الى شحيم لشراء النسيج من الصناع . واجور العمال قد ازدادت ولا تزال . وأرباب العمل يضطرون أحياناً لاحضار عمال من سوريا ليقوموا بمتطلبات الصناعة التي تستدعي كثرة العاملين فيها . والعامل السوري الذي يعمل في شحيم يتناول اجراً اقل من الأجر الذي يتناوله العامل الشحيمي ومع ذلك فهو يقبل بهذا الأجر لأنه افضل من أجره في سوريا . كما ان الصناعة قد اصبحت اليوم على قدر اكبر من السهولة بالنسبة للعمال من حيث قصر ساعات العمل واحداث بعض التسهيلات كالندافة الآلية مثلاً . وعدد العاملين في الصناعة اليوم في شحيم لا يتعدى المائة وخمسين عاملاً منهم حوالي عشرة « معلمين » اي ارباب عمل يعمل لحساب كل منهم عدة عمال مقابل اجور للغزل او للحياكة . اما الآخرون فيشتغلون افرادياً لحسابهم الخاص . الا ان هذا العدد ليس ثابتاً فبعض العمال يتركون المهنة ثم يعودون اليها ليتركوها من جديد ...

وهناك فئة أُخرى تعمل في مصالح أُخرى حتى انتهاء دوام العمل ثم تعود فتزاول الصناعة بعد الظهر أو في ايام التعطيل ، الا ان هناك قسماً من السكان لم يترك الصناعة اطلاقاً ولا يزال يعمل فيها .

ان النشاط الرئيسي الذي يزاوله سكان شحيم اليوم هو العمل في قطاع الخدمات او الاستخدام ، اذ تبلغ نسبة العاملين في هذا القطاع

حوالي ٦٠٪ من الفئات العاملة ، بينما لا تزيد نسبة العاملين في صناعة انسجة الشعر على ١٥٪ . ان هذا التغير البالغ يبدو جذرياً اذا قيس بالوضع القديم اذ كانت نسبة المستخدمين لا تتعدى الـ ١٠٪ حيث كان السكان ينظرون الى مجال الاستخدام باستخفاف نظراً للفارق الكبير في الكسب بين العامل في الصناعة وبين « الموظف » وكان هناك عرف شائع بينهم يقول بأنه بدلاً من أن يقضي الولد الوقت في المدرسة فمن الأفضل له أن يتعلم حرفة تساعده على الكسب ويعنون بها الصناعة ، أما اليوم فالأهلون ينشئون أولادهم على اساس اكمال الدراسة والحصول على الشهادات العلمية التي تخولهم فيما بعد من اشغال مراكز أفضل سواء في الإدارة العامة ام في الإدارات الخاصة . وبوسعنا ان نعتبر توجيه الأهلين للاولاد للعمل في الصناعة قد أصبح ضعيفاً إن لم نقل معدوماً . فالمهنة اليوم قد أصبحت مقتصرة على افراد الجيل القديم وقلة من افراد الجيل الجديد .

ان هذا التغير الثقافي من اتجاه اقتصادي رئيسي الى اتجاه اقتصادي آخر ينبع في الأصل من معطيات واحدة ، هي معطيات البلدة نفسها شحيم . وسأحاول فيما يلي ان ابرز هذه المعطيات من حيث أثرها على نشاط السكان وذلك بدراسة البلدة نفسها .

فشحيم هي عاصمة اقليم الخروب . وهذا الاقليم هو أحد قسمي قضاء الشوف الذي يشتمل بالاضافة اليه على المنطقة المسماة بالشوف الأعلى . يقع اقليم الخروب الى الجهة الجنوبية الغربية من الشوف ،

وعلى سبيل المقارنة بوسعنا ان نعتبر كلاً من قسمي الشوف كنموذجين ثقافيين مختلفين . فالشوف الأعلى يمثل البيئة الزراعية المحضة من حيث المعطيات الطبيعية التي تتمثل في وفرة المياه وخصوبة الأراضي ، ومن حيث المعطيات الثقافية التي تتجلى في تعلق السكان بالأرض وتقديسهم للعمل الزراعي وارتباطهم المتين بالبيئة . لذا كثرت في هذه المنطقة الزراعات وخاصة زراعة الاشجار المثمرة المختلفة كالتفاح والدراقن والاجاص الى جانب الكرمة المشهورة ، وبالاضافة الى ذلك يعتبر الشوف الأعلى نقطة سياحة واصطياف شهيرين .

فاذا اتينا الى اقليم الخروب لوجدنا المعطيات مختلفة ، فهذه المنطقة التي لم تكن في الأصل متجانسة من حيث اختلاف نشاط السكان بين بلدة وأخرى قد اصبحت في الوقت الحاضر متماثلة الاتجاه الثقافي القائم على العمل في مجالات الاستخدام . فسكان دلهون مثلاً كان يعمل معظمهم في معاصر الحلاوة الطحينية وسكان مزبود كانوا رعاة ومزارعين وسكان داريا اختصوا ببيع زيت الزيتون في المدن وسكان عانوت كانوا يحترفون صنع « الموارج » لدرس القمح في البيادر وسكان برجا كانوا ، ولا يزالون ، يعملون في صناعة الانسجة القطنية والكتانية المختلفة وبيعها . وهذه القرى جميعها مجاورة لشحيم . اما شحيم فكانت في هذا الوقت ، كما ذكرت ، تعمل في صناعة الشعر . ان نشاط هذه المنطقة المحيطة بشحيم كان ولا يزال بعيداً عن العمل الزراعي . اذ ان اقليم الخروب يشكو من نقص فادح في المياه

بالاضافة الى فقر اساسي في التربة بفعل انجراف الارض وعدم قيام الأهلين من جهتهم بانشاء الجلالي للحد من هذا الانجراف، فالعمل الزراعي في الاقليم يتطلب توظيفات باهظة وعمل دائب لإصلاح الأراضي مما يفوق امكانيات السكان . كما ان اقليم الخروب رغم جواذبه السياحية، فهو لا يعتبر كمركز اصطياف وسياحة بسبب سوء حالة الطرقات وسوء التنظيم السياحي الداخلي .

تقع شحيم على الخط الفرعي الذي يتفرع من الخط الساحلي بيروت ـ صيدا عند بلدة وادي الزينة ويمر في كترمايا ـ مزبود شحيم ـ عانوت . . بيت الدين وتبعد عن بيروت مسافة ٤٨ كلم وعن صيدا ١٨ كلم . وهي بلدة جبلية كبيرة تمتد على عدة تلال وقد ازدادت مساحتها بشكل بالغ في الآونة الأخيرة على أثر الهزة الأرضية التي أصابت لبنان في عام ١٩٥٦ وكانت أشد أثراً في المنطقة حتى اصبحت شحيم وكأنها مؤلفة من قرى صغيرة ، متلاصقة . وشحيم الأصلية مؤلفة من أربعة أحياء رئيسية تتناسب مع العائلات الأربع الكبرى فيها ، فهناك حي الشريفة وحي التلة وحي السهلة وحي الجامع والرويس ، وقد تضاعفت هذه الأحياء ، منذ الهزة ، فاصبحت ثمانية مع حي الجرد وحي خلة عبيد وحي القلعة وحي الرويس الجديد . وهذه الأحياء متباعدة ومتفاوتة الارتفاع بشكل ملحوظ ، وعلى سبيل المثال فارتفاع حي الرويس الجديد يبلغ حوالي ٥٥٠ م وارتفاع حي التلة حوالي ٦٧٠ م ، اما ارتفاع حي خلة عبيد فيبلغ حوالي

٧٨٠ م . وسكان شحيم كلهم من المسلمين السنيين ويبلغ عددهم حوالي ثمانية آلاف نسمة . وقد اتجهوا في الآونة الأخيرة الى العمل في حقل الاستخدام لدرجة التخصص فيه . وقد أدى هذا التيار الجماعي المهني الى احداث تغييرات عديدة في ثقافة البلدة الاساسية من جراء احتكاك الأهلين بالثقافات المختلفة والمدنية منهـــا بصورة خاصة . ويفسر ذلك بدخول عناصر ثقافية جديدة الى البلدة من قبل العاملين في الخارج الذين يعتبرون كنازحين عنها مؤقتين ومن قبل السكان الثابتين أنفسهم الذين أخـــذوا يترددون باستمرار الى المدن نظراً لتحسن وسائل المواصلات وازديادها بشكل بالغ .

ان الابعاد الثقافية الحديثة في شحيم لم تتبلور بعد ، فثقافة شحيم هي مزيج غير منسجم من اتجاهين متناقضين تماماً وكل تغير يحصل فيها هو تغير في التركيب القديم : تركيب بلد كانت قائمة عـــلى الصناعة . والتفاعل بين هذين التيارين جعل من البلدة نموذجاً للثقافة المتغيرة التي تلاحظ حديثاً في معظم القرى اللبنانية وغير اللبنانية ايضاً . ودراسة هذا التغير الثقافي يستدعي القيام مسبقاً بدراسة للوضع القديم قبل التغير ثم مقارنة هذه الدراسة بدراسة الوضع الجديد . الا ان عناصر هذه المقارنة ليست متوفرة لديَّ تماماً نظراً لعدم وجود أية دراسة سابقة للبلدة بالاضافة الى ضيق المجال للقيام بهذه المقارنة .

وعلى كل سأحاول ان ابرز مظاهر التغير الثقافي الرئيسية في شحيم من خلال دراسة أوضاع الصناعة . وقد اعتمدت في سبيل تكوين

مفهوم عام عن الوضع القديم على اقوال السكان وخاصة المسنين منهم وعلى « آثار » هذا الوضع من عناصر الثقافة المادية الباقية وأخيراً على اوضاع العاملين الحاليين أنفسهم التي تعتبر كأوضاع السكان في الماضي اي قبل التغير لأن الصناعة لم تتطور الا بالنزر اليسير .

١ ـ الوضع الاقتصادي والارتباط بالبيئة :

ان اعتماد الصناع الرئيسي على مصدر اساسي واحد تقريباً للدخل يحصلون عليه في فترة معينة من السنة ودفعة واحدة جعلهم يعتمدون التوفير والادخار كمبدئين رئيسيين لحياتهم الاقتصادية فيما يختص بنواحي المعيشة والانفاق ، سيما وان هذا الدخل عرضة للتأثر بأحوال السوق المترجرجة دائماً . ولا يزال اثر هذا العامل الثقافي يمتد حتى اليوم وان كانت قد قلت فاعليته الى حد ما تحت تأثير ارتفاع مستوى المعيشة النسبي .

ويبدو ان احتراف الصناعة الى جانب صعوبة القيام بالعمل الزراعي قد جعلت السكان يعتمدون على الزراعات البعلية فقط كمورد اقتصادي زراعي . وعلى رأس هذه الزراعات البعلية يأتي الزيتون الذي يشتهر بجودته وجودة الزيت المستخرج منه . وقد كانت للزيتون المسمى « بالرزق » في شحيم اهمية بالغة في الماضي ، ولا تزال بالنسبة للعاملين في الصناعة حالياً حتى ان ثروة الفرد كانت

تقاس أحياناً بما لديه من اشجار زيتون وبمقدار ما تنتجه هذه الأشجار من الزيت . ولم تكن عمليات بيع الأراضي المغروسة بالزيتون تمر دون ان ترافقها انفعالات شديدة فتبقى مدار الحديث مدة طويلة . واعتقد ان هذا الأثر الذي لعبه الزيتون يعود الى انه لا يتطلب من الأهلين سوى تفرغ لفترة قصيرة من السنة وتكبد اكلاف قليلة لرعايته وفلاحة ارضه وتسميده وهذا ما يتم بعد اجراء عمليات بيع الأنسجة اي في فصلي الخريف والشتاء كما ان الزيتون هو بمثابة رابط متين يشد السكان الى الأرض والقروي بحاجة ماسة لهذا الرابط لأن القرية كانت ولا تزال ترمز الى الحياة الزراعية وتقديس الأرض ، هذا بالاضافة الى رابط المسكن والأراضي المجاورة له والأراضي الصالحة للبناء التي توازي اراضي الزيتون من حيث الأهمية ويحدث تبادلها كذلك فيما بين السكان انفعالات شتى .

ان احتراف الشحيميين الحديث للاستخدام واعتمادهم على الأجور كدخل أساسي للحصول على أسباب المعيشة قد جعل ارتباطهم بالبيئة أضعف من السابق سيما وان العمل غالباً ما يتم خارج شحيم حتى نستطيع ان نعتبر هذه الظاهرة وكأنها هجرة مؤقتة . والهجرة أصلاً ترتبط ارتباطاً وثيقاً بملكية الأرض وكلاهما يؤثر على الآخر وقد وصف أحد الانثروبولوجيين العرب الهجرة بأنها « في جوهرها تغيير في النظرة الى الارض والعمل الزراعي فالاعتماد عليهما في وجود لا شيء أمر يؤدي الى الاملاق » . ومع ان اراضي السكن قد بقيت

محافظة على اهميتها من حيث كونها عاملاً لارتباط السكان بالبيئة الا ان اراضي الزيتون قد فقدت جزءاً كبيراً من هذه الاهمية لبروز عامل ثقافي جديد أشد أثراً فأصبح من غير المستصعب على الفرد ان يعمد الى بيع قسم من ممتلكاته منها لينفق ثمنه على تعليم اولاده ثم اتمام دراستهم فيما بعد .

وفيما يختص بمسالة الدخل والأجور في الصناعة بالنسبة للعاملين فيها فبإمكاننا ان نميز ما بين فئتين من هؤلاء ، فئة ارباب العمل الذين يملكون رأس المال وفئة العمال الذين يقومون بالعمل لقاء أجور. وأجر العامل هو نفسه تقريباً اذا كان غزالاً أم حائكاً على اساس معدل ساعات العمل ، وهو يقل عما يجنيه رب العمل من ربح بالاضافة الى كونه متقطعاً ومحدوداً . وبصورة اجمالية فان الحالة الاقتصادية لعمال النسيج تبقى دون المتوسط الا اذا زاولوا اعمالاً أخرى خلال فترة الانقطاع الطويلة . غير أنه يجب ان نضع قيد الحسبان من جهة أخرى بأنهم يعملون في القرية ذاتها ويقطنون فيها فيستغنون بذلك عن كثير من أوجه الانفاق التي يتوجب عليهم تكبدها لو عملوا في المدن من اجور سكن ونقل واكلاف معيشة الخ. كما يظهر ذلك لدى بعض السكان الذين يعملون في المدن كعمال او اجراء لقاء دخل قليل نسبياً ، وهذا ما جعل قسماً منهم في الواقع يترك المدينة ويعود الى العمل في الصناعة . اما بالنسبة للفئات الأخرى من السكان الذين يعملون في المدينة او حتى في البلدة

ويتناولون اجوراً متوسطة او مرتفعة فلا شك في ان دخل صناع النسيج يبقى دون دخلهم بفارق ملموس .

٢ ـ وضع المرأة :

يقضي صانع النسيج معظم اليوم وهو يعمل خارج البيت سواء اكان يغزل او يحيك او يندف الشعر الخام أو يهيء العمل لليوم التالي . لذا تقع على المرأة جميع المسؤوليات المتعلقة بأعمال المنزل وتربية الأولاد ، وهي تتسلم عادة زمام الإدارة واوجه الانفاق والادخار وغيرها . والى جانب ذلك تشكل المرأة سنداً للرجل في الصناعة لا يستغنى عنه . فهي « تعرب » الشعر الخام وتلف «قضبان» الخيوط المغزولة للحياكة وتساعده في عملية « التسدي » كما انها تحضر الطعام بنفسها احياناً الى مكان العمل ... وجميع هذه الأعمال لا يستطيع الرجل ان يقوم بها لوحده لأنها تستغرق جزءاً كبيراً من وقته يحتاج اليه لمزاولة الصناعة بالاضافة الى ان المرأة الشحيمية العاملة في الصناعة توفق الى التنسيق بين المساهمة بأعمال الصناعة وادارة البيت وتربية الاولاد . وهذا ما منحها شخصية متميزة تؤهلها للتكيف مع جميع الاحتمالات التي تطرأ على الرجل .

لم يتبدل وضع المرأة كثيراً بعد حصول التغير الثقافي في شحيم فبقيت قائمة على ادارة شؤون البيت وتربية الأولاد وتسلم زمام الانفاق

والادخار . لكنها اصبحت تتمتع بحظ أوفر من العلم ، ومن النساء من يعملن كالرجال في ميدان الاستخدام . الا ان المرأة المتعلمة اصبحت تأنف من العمل في الصناعة ولا شك في ان انصراف المرأة الشحيمية من العمل في الصناعة قد ساهم الى حد ما على فتور النشاط الصناعي بصورة عامة .

٣ - الثقافة المادية :

وتشمل المسكن والملبس والمأكل .

ان الثقافة المادية كانت عرضة للتغير أكثر من سواها بفعل تغير الأوضاع الثقافية في البلدة .

وسأتناول كلاً من المسكن والملبس والمأكل على حدة .

أ - المسكن :

تتميز شحيم الصناعة بتجمع سكني محصور الى حد كبير. فالبيوت متقاربة حتى التلاصق وهي مبنية بالحجر والتراب « الطين » ومسقوفة بالخشب والتراب او بالقرميد واحياناً بالباطون . وتتميز الجدران بسماكتها البالغة وقد تبلغ هذه السماكة المتر احياناً وتتألف غالباً من طبقتين تفصل بينهما طبقة ثالثة من الحصى والتراب. والبيت مؤلف

من عدد قليل من الغرف ، وقد تكون احياناً غرفة واحدة ، تعلوها في الطابق الثاني غرفة للنوم تسمى « علية » ، ومن بين هذه الغرف غرفة واسعة جداً تسمى « دار » او « ليوان » تتسع لعدد كبير من الأشخاص وتصمم سلفاً تحسباً للمناسبات التي لا بد من حصولها من افراح واتراح . وتخلو معظم هذه البيوت من التجهيزات الصحية الأساسية كما انها تخلو من التفنن البنائي وان كانت لا تخلو من بعض النقوش والزخرفات المختلفة في الداخل . وطرقات البلدة الداخلية قليلة وضيقة وهناك شارع رئيسي واحد يتصل بالأحياء الأربعة وينتهي في كل منها بساحة عامة واسعة يجتمع فيها افراد العائلة في المناسبات الهامة .

اما الاتجاه البنائي الحديث فيميل الى استخدام الباطون المسلح كمادة رئيسية لبناء البيوت . وهذه البيوت قد اصبحت اكثر عدداً وأكبر اتساعاً وان كانت لا تزال على شيء من التقارب والتجاور . وعدد الغرف قد ازداد وتنوعت اوجه استعمالها اذ خصصت كل غرفة لناحية معينة كما ان التجهيزات الصحية اصبحت متوفرة داخل البيوت . الا ان الثورة البنائية التي تلت الهزة الأرضية مباشرة في عام ١٩٥٦ كانت امتداداً للنسق البنائي القديم من حيث خلو البيوت من التفنن البنائي ولكن عقب ذلك فيما بعد اتجاه مستحدث في البناء يميل الى انشاء ابنية عصرية متعددة الطبقات من جهة او مقامة على نسق « الفيلات » الحديثة من جهة أخرى . غير ان الطرقات لم تتطور

بتطور الحركة العمرانية وازدياد اعمال النقل والمواصلات فبقيت على حالتها القديمة وان كانت قد فرشت بطبقة من الباطون ، ويبدو ان شدة تمسك السكان بأراضي السكن المجاورة للبيوت تقف حائلاً في أكثر الأحيان من شق شوارع عريضة ضمن الاحياء . . . وقد اصاب وسائل المواصلات تطور بالغ فكثر عدد السيارات السياحية الخاصة وسيارات النقل الصغيرة حتى انها اخذت تشكل منافساً قوياً لسيارات النقل الكبيرة « البوسطات » التي كانت اعمال النقل مقتصرة عليها في الماضي فاضطر اكثرها الى التوقف عن العمل .

ومما يجدر ذكره كذلك ان وصول التيار الكهربائي الى شحيم منذ بضعة سنواف قد نتج عنه تغيير ظاهر في نمط المعيشة وخاصة فيما يتعلق بادوات البيت واثاثه فدخلت الى شحيم اجهزة وسلع لم يكن لها وجود في السابق مثل اجهزة التبريد والغسيل والتلفزة . . . وغيرها ويتزايد انتشار هذه الادوات عاماً بعد عام .

ب – الملبس :

ان اللباس التقليدي للصناع هو « الشروال » اللبناني و « الشملة » المعروفان . الا ان من الصناع من يلبس « الخمباز » وهذا ما يتميز به بصورة خاصة أرباب العمل . ولا شك في ان الخمباز مستورد اصلاً من سوريا جاء به العاملون بالمهنة الشحيميون على اثر احتكاكهم بأهالي

سوريا اثنـــاء نزوحهم المؤقت للعمل هناك والى جانب لباس الجسم ياتي الطربوش كغطاء تقليدي للرأس . الا ان من الصناع من يبقى حاسر الرأس ومنهم من يعتمر « الحطة والعقال » التي لا شك في انها لباس مستورد يحتمل ان يكون قد أتي من سوريا او من فلسطين . اما بالنسبة للمرأة فالفستان العادي الملون ذي الاكمام الطويلة هو اللباس الغالب بالاضافة الى المنديل الابيض الطويل كغطاء للرأس بدون ان يغطي الوجه .

اما لباس السكان الذين يعملون في قطاع الاستخدام فيختلف عن لباس الصناع بشكل ظاهر . اذ انهم يرتدون ، كما نعلم ، الالبسة الغربية المتنوعة . وقد كان من نتيجة انتشار هذه الالبسة ان تغير زي كثير من الصنـــاع فتركوا لبس الشروال التقليدي ليلبسوا البنطلون والجاكيت ... والجيل الجديد بأسره قد ترك لبس الشروال نهائياً . وفيما يتعلق بالمرأة فانهـا اخذت بارتداء الألبسة المدنية المختلفـة اسوة بزميلاتها في المدينة مع المحافظة على قدر كاف من الاحتشام والبعد عن الاسراف .

ج - المأكل :

ان ضعف الانتاج الزراعي جعل السكان يعتمدون على السوق الخارجية للحصول على المواد الغذائية المختلفة . وفي السابق عندمـــا كانت وسائل المواصلات قليـــلة ورحلاتها محددة في الوقت ومحدودة

العدد كانت معظم المواد الغذائية تأتي الى شحيم من صيدا لقربها منها. الى جانب استيراد السلع الغذائية الأخرى من المنطقة نفسها وخاصة الشوف الاعلى . وتتميز هذه المواد ببساطتها واعتدال ثمنها الى درجة الرخص .

واليوم وبعد حدوث التغيير الثقافي لا يزال اعتماد السوق الغذائية على المصادر الخارجية الا ان هذه المواد قد اخذت ترد الى شحيم من مختلف المناطق ، بتحسن وسائل المواصلات وبصورة خاصة من بيروت وقد ازدادت كمية ونوعاً الا انها بقيت قائمة على الضروريات من دون الاسراف في الكماليات . وتجدر الاشارة هنا الى انتشار احدى السلع بين سكان شحيم على نطاق واسع جداً ، وهي « المتة » او ما يسمى « بالشاي الارجنتيني » التي يستوردها لبنان من الأرجنتين وهي تقوم مقام الشاي والقهوة معاً بالنسبة للأهالي وتتمتع بكثير من المزايا النافعة للصحة . ويقول الاهالي ان هذا المشروب قد انتقل الى شحيم على يد إحدى النساء الشحيميات المغتربات ، ومن المحتمل ايضاً ان يكون قد جاء من منطقة الشوف نفسها حيث تنتشر المتة بين السكان الدروز بشكل بارز .

واود ان اشير هنا ايضاً الى تطور جديد طرأ على العمل الزراعي في شحيم . فمنذ وصول المياه الى المنازل ضمن قساطل آتية من الباروك أخذت فئات عديدة من السكان بزراعة الاراضي المجاورة للمنازل بالخضار والفواكه المختلفة وريها بالفائض من هذه المياه . ان

هذه الزراعات تبقى بالاجمال فردية وعلى نطاق ضيق الا انها تؤكد العوامل النفسية التي تهيمن على « ريفية » الفرد في القرية وشعوره بمدى أهمية الزراعة بالنسبة اليه . وهذا ما يجعل بمقدورنا ان نفترض انه لو كانت مياه الري متوفرة في شحيم لكان الوضع الزراعي على خلاف ما هو عليه حالياً .

٤ - الوضع الاجتماعي :

ان انصراف الصناع الى ممارسة العمل طيلة النهار تقريباً يجعل الاتصالات فيما بينهم قليلة ومقتصرة غالباً على مسائل الصناعة ، ما عدا بعض الزيارات المتفرقة والسهرات . الا ان المناسبات الرئيسية كالافراح والأحزان هي بمثابة عامل فعال في جمع جميع السكان في مكان واحد لكي يؤدوا « الواجبات » الاجتماعية المترتبة عليهم . والاعراس في شحيم تتخذ طابع القرية الصميم وتدوم ثلاثة ايام على الاقل يستمر فيها الغناء والرقص من قبل النساء والرجال على السواء . وفي اليوم الاخير للعرس يجلب اصحاب الفرح احد قارعي الطبول من الغجر « النوَر » ليتمكن الرجال من رقص الدبكة « الشحيمية » التي تتشابه كثيراً مع الدبكة البعلبكية . ويتخلل هذا اليوم ايضاً مبارزة تقليدية في السيف تتم بمصاحبة قرع الطبل . وعند انتهاء مراسم الزفاف اي بعد الظهر يفتح دفتر لدى العريس لجمع الهدايا التي تسمى « النقطة » وهي مقتصرة على النقود (بالاضافة الى الزيت الذي يهدى

قبل الزواج عند الخطوبة وبعده) ، وكل شخص في البلدة لديه دفتر خاص بـه يهدي أو « ينقط » بموجبـه تبعاً لمـــا سبق وسلف له . والأعراس هي بمثابة دعوة لجميع السكان وبصورة خاصة النساء للتزين وارتداء الثياب الفاخرة . ويبدو العرس وكأنه يوم صاخب يتخلـل اياماً طويلة من السكون .

والمبالغـة في ابراز الأفراح تقابلها من الجهـة الاخرى المبالغة في اظهار الحزن . واصحاب الحزن يستمرون فترة طويلة جداً تقارب السنة احياناً في الحداد كما ان الأهل والجيران يحرصون جداً على مراعاة شعورهم بشتى الوسائل . ووجود المعزين في الحزن كوجود الهنئـين في الفرح يحسب له حساب . وقد يعتمد اصحاب الفرح او الحزن احياناً الى مراقبـــة الموجودين ليتبينوا المتغيبين منهم وغالباً مـــا « يعتبون » عليهم بعد ذلك .

ان هذه الروح الجماعية قوية في شحيم وتتجلى في مختلف الحركات والاعمال التي تستدعي التعاون فيما بين السكان كأعمال البناء حيث يهرع الى مكان العمل معظم الأهل والجيران ليساعدوا صاحب البناء في تحضير « الباطون » و « صبه » حتى ليستغني عن احضار عمـال لهذه الغاية . والأمثلة عديدة على ذلك ...

والصبغة العائلية في شحيم حادة . فافراد العائلة الواحدة يتحدون فيما بينهم على السراء والضراء . وتحتل المصلحة العائلية مكاناً بارزاً

تبدو معه المصلحة الفردية اقل اهمية . والاحياء الأربعة القديمة مقسمة تبعاً لتقسيم السكان الى عائلات اربعة كبرى بالاضافة الى عائلات اقل عدداً تتمازج معها .

كما ان الأحياء الأربعة الحديثة هي امتداد لهذه الأحياء الأربعة القديمة ، وان تكن المسافة بعيدة نسبياً فيما بينها ، فحي الجرد هو امتداد لحي الشريفة وحي القلعة هو امتداد لحي التلة وحي المسيد هو امتداد لحي السهلة وحي الرويس الجديد هو امتداد لحي الرويس ـ الجامع ، بالاضافة الى تجمع العائلات الأخرى ضمن مناطق سكنية متميزة . وعنصر « العدد » شديد الأهمية في شحيم وفي الاقليم كله بصورة عامة . ويتمتع اهالي شحيم بحظوة ونفوذ في الاقليم نظراً لكثرة عددهم بالنسبة لعدد سكان القرى الأخرى وهذا ما جعل شحيم في الواقع عاصمة للاقليم .

واستتباعاً للوضع الاجتماعي اشير هنا الى الناحية الترويحية وكيفية تمضية اوقات الفراغ. ان التسلية الرئيسية هي لعب الورق ، من دون قمار ، وارتياد المقاهي والصيد والنزهات والزيارات وبالطبع الأفراح .

ان ما ذكرته اعلاه يمثل الطابع الصميم لشحيم الصناعة . وسأشير فيما يلي الى نسق التطور الثقافي الذي تناول المسألة الاجتماعية .

فيما يتعلق بالمناسبات من افراح واتراح فان اثرها قد ضعف الى حد ما . وبفعل ازدياد الزيجات من خارج البلدة فكثيراً ما تتم هذه

الأعراس على نسق العادات في المدينة ، أي في يوم واحد ، وبدون صخب ورقص وقرع الطبل . وكذلك فترت حدة الأحزان وقصرت فترة الحداد بشكل بالغ ، كما ان الحركات الجماعية كالتعاون في انجاز الاعمال قد تلاشت الى حد كبير .

والشعور العائلي الحاد قد فتر نسبياً ليفسح مجالاً للمصلحة الفردية سيما وان البلدة قد اتسعت واستقلت كل اسرة في منزل مستقل .

واخيراً فان وسائل التسلية لم تتطور كثيراً وانما تنوعت وازدادت ، فازداد عدد المقاهي واستمر لعب الورق كتسلية رئيسية. وبوصول الكهرباء الى شحيم برزت وسائل جديدة كأجهزة الاذاعة والتلفزة وغيرها مما قلل من مدى الزيارات لكنه زاد مدى السهرات في البيوت التي توجد فيها اجهزة تلفزة ، على انه مما يلاحظ كذلك كثرة عدد النوادي الرياضية حديثاً في شحيم بعد ان كانت مقتصرة في الماضي على ناديين رياضيين فقط .

القسم الرابع

مراحل الصناعة في شحيم

ان صناعة انسجة شعر الماعز هي صناعة نسيجية ذات طابع خاص لأن المادة الخام فيها ، اي شعر الماعز ، تختلف عن المواد الخام التي تستعمل لصنع الانسجة الأخرى كالقطن والحرير والصوف وغيرها... من حيث خشونة الشعيرات وتخانتها وقابليتها للغزل والحياكة . وهي بالاضافة الى ذلك صناعة يدوية لم تستخدم فيها الآلة بعد سوى جزئياً في مرحلة الندافة .

والصناعة في شحيم موسمية ومقسمة الى مراحل محددة تماماً ، وهي تتدرج من حيث الزمن ومن حيث تسلسل العمليات . فتبدأ في فترة ثابتة من السنة وقبيل ابتداء الاعمال بمرحلة شراء الشعر الخام وتنتهي بمرحلة البيع في اواخر الصيف .

سنرى اذن على التوالي المراحل الآتية :

١ ـ شراء الشعر الخام .
٢ ـ التعريب .
٣ ـ الندافة .
٤ ـ الغزل .
٥ ـ الحياكة .
٦ ـ بيع الانسجة .

الشعر الخام وكيفية الحصول عليه

الشعر او الوبر هو المادة الاولية الوحيدة التي تقوم عليها صناعة نسج المضارب والانسجة الاخرى .

والشعر يعني عادة شعر الماعز . الا انـه من الممكن ان تستعمل انواع اخرى من الشعر فتدخل في حياكة النسيج سواء لنسيج المضارب ام للانسجة الاخرى . فأذناب البقر تتمتع بمتانـة زائدة ، وهي اذا دخلت في صنع النسيج فانها تمنحه قوة اضافية . وكذلك من الممكن استعمال وبر الجمال او صوف الغنم كما ذكرنا ، الا ان الاول يتمـيز بالنعومة وصعوبة العمل فيه ، كما ان الثاني قليل المتانة ويرتخي بسرعة. والنسيج يمكن ان يتقبل انواعاً عديدة أُخرى من الشعر ، الا انهـا تبقى في حيز الكتمان وتعتبر من اسرار المهنة ، ولا شك في ان كثيراً من الصناع يدخلونها في مزيج الشعر . اما في شحيم فمن المؤكد بأن الشعر الخام هو بمجمله من شعر الماعز الصرف وحتى لو كان خلط الشعر يحصل احياناً في شحيم ، الا انـه يبقى مع ذلك بنسبة ضئيلة بوسعنا ان نعتبرها كمعدومة .

من هذه الانواع التي اشرت اليها بوسعنا ان نذكر أوبار الخيل

والخنازير والحمير ، وخيوط الجنفيص.. حتى الشعر الانساني وبصورة خاصة شعر النساء الذي يؤتى به من صالونات التجميل .. الخ.

ان قطعان الماعز في شحيم قليلة ، وكميـــة الشعر التي تتطلبها الصناعة تفوق كثيراً كمية الشعر المستخرجة من هذه القطعان . لذلك كان اعتماد البلدة يتركز على المصادر الخارجية للحصول على الشعر اللازم.

وهنـــاك صنفان رئيسيان من شعر الماعز : شعر « القص » ، والشعر الدباغي او ما يسمى من قبل الصناع بالشعر « الملش » .

فشعر القص هو الشعر الذي يقص عن ظهور الماعز وهي لا تزال حية تسرح في المراعي . وقد اعتاد اصحاب المواشي ان يقصونه في اوقات معينـة من السنة تبدأ منذ اوائل نيسان وتستمر حوالي ثلاثة اشهر . يتميز شعر القص بنظافته ومتانته واستقامة شعيراته ، وهو أسهل للعمل في مختلف مراحل الصناعة ، بالنسبة للتعريب ، وبالنسبة للندافة ، وبالنسبة للغزل ، وبالنسبة للحياكة ، وهو بالاضافة الى ذلك يزن اكثر من الشعر الدباغي ، وهذه ناحية هامة يعول عليها الصناع عند بيع النسيج .

اما الشعر الدباغي فهو الشعر الذي ينزع عن الجلود التي سلخت من الماعز المذبوحة في المسالخ . وهذه الجلود تؤخذ بعد الذبح وتنقل الى الدباغات حيث تعالج فترش بالكلس والزرنيخ . وعندمـا تصبح جافة ينزع الشعر منها بسهولة باليد بعد ان يفقد تماسكه بالجلد . لذلك

فشعر الدباغي ، بالاجمال ، شعر وسخ ، واقل متانة من شعر القص . وهو بالاضافة الى احتوائه على الكلس والزرنيخ المتبقيان فيه ، فانه يحتوي ايضاً على قشرة تبقى ملتصقة به وتتأتى من الجلد نفسه . كما ان العمل به في مختلف مراحل الصناعة اكثر عناء وهو يزن اقل من شعر القص

يحصل صناع شحيم على الشعر الخام من عدة مصادر . فهناك مبدئياً المصادر الداخلية للشعر اي التي تبقى ضمن الاراضي اللبنانية . وهناك من جهة أخرى المصادر الخارجية .

فالمصادر اللبنانية هي المناطق التي تكثر فيها قطعان الماعز . من هذه المناطق نذكر بعض جهات الجنوب مثل النبطية ـ جويا ـ بنت جبيل وضواحيها ، وكذلك بعض جهات البقاع مثل قب الياس ـ مشغرة ـ القرعون . كما تعتبر بعض جهات كسروان وبعض جهات الشمال من المصادر كذلك .

وهناك تجار في هذه المناطق ، وبصورة خاصة في جهات الجنوب، يجوبون الاماكن التي توجد فيها الماعز فيحصلون على الشعر من الرعاة الذين يقصونه عن ظهور الماعز في الاوقات الثابتة من السنة ، وذلك بناء على اتفاق مسبق بينهم وبين الرعاة (اي بدفع رعبون) ثم يودعونه بعد ذلك في مستودعات خاصة معروقة . والذين يملكون منهم رأس مال كاف يخزنونه لأكثر من سنة اما الآخرون فيبيعونه

مباشرة . على ان الشعر لا يجوز ان يبقى مخزوناً لأكثر من سنتين اذا لم يعالج ببعض المستحضرات الخاصة ، اذ انه يصاب بعد ذلك بالتلف من جراء حشرة العث . بعد ذلك اما ان يذهب هؤلاء التجار بالشعر الى شحيم لبيعه هناك من قبل تجار الشعر الخام الشحيمي او الصناع انفسهم ، واما ان يأتي تجار شحيم او الصناع ليشتروا الشعر من هذه المستودعات . وبالنسبة لشحيم فإن الصناع الذين لا يشترون الشعر الخام مباشرة من تجار الجنوب ، يحصلون عليه من مستودعات خاصة في شحيم يملكها بعض التجار الشحيميين ويعرضون فيها الشعر الخام . ويبدو ان الصناع السوريين اصبحوا يشكلون منافساً هاماً لصناع شحيم في استيراد الشعر من المناطق اللبنانية . فسوريا قد منعت تربية الماعز في اراضيها لذلك فهي تحصل عليه من الخارج . والتجار السوريون يأتون كل سنة الى مناطق الماعز في لبنان ليشتروا الشعر منها ، بناء على اتفاق مسبق (رعبون) في اكثر الاحيان . وهذا على نقيض ما كان يجري في السابق حيث كان صناع لبنان يذهبون الى سوريا لشراء الشعر من هناك .

هذا فيما يتعلق بشعر القص . اما الشعر الدباغي فيحصل عليه صناع شحيم ، او تجار الشعر ، من الدباغات . وهذه عديدة في لبنان وموجودة في جميع المناطق اللبنانية . فهناك عدد كبير من الدباغات ينتشر على طول الطريق التي تمتد بين جسر نهر بيروت وجونية . كما ان هناك دباغات في كل من صيدا وجونية والبترون وطرابلس

وزحـلة ومشغرة ... الخ ، وجميع هـذه الدباغات تعتبر مصدراً من مصادر الشعر الدباغي الذي يصل الى شحيم .

وفضلاً عن المصادر اللبنانية ، يحصل صناع النسيج في شحيم على الشعر الخام من اقطار أخرى عديدة . وعندما كانت الصناعة في شحيم قائمة على قدم وساق في الماضي كان الشعر الخام يتقاطر الى شحيم من مختلف الانحاء في العالم ، من الاقطار العربية وبعض الاقطار الافريقية ، ومن الهند ومن اوروبا الخ . . . ، فكان هناك مـا يشبه « الفورة » للبحث عن الشعر . اما اليوم وبعد ان ضعف الانتاج الى حد كبير ، فالاستيراد مقتصر على بعض الاقطار والاسواق اهمها سوق افريقيا . وقد اعتاد عدد من تجار الشعر في شحيم ان يذهب الى مصر والسودان في اوقات معينة في كل عام ، تبدأ عـادة في نيسان لان الشعر يقص هناك ايضاً في فصل الربيع ليشتروا الشعر من هناك فيحصلون عـلى الشعر القص من جهات الفيوم واسيوط ، والشعر الدباغي من دباغات القاهرة والاسكندرية . اما في السودان فيكلفون أحدهم للتجول بـين الرعـاة للحصول على الشعر الذي يقص ويطرح جانباً فيجلب هـذا الشعر ويقبض اجرته من دون ثمن الشعر الذي لا يشترى كما قلنا .

الا ان الشعر الافريقي ، بالرغم عن تدني ثمنه في مصر والحصول عليـه بدون ثمن في السودان ، يبقى محـدود الاستيراد . اذ يجب ان نأخذ بعين الاعتبار من جهة أخرى ، نفقات النقل والسفر والرسوم المتوجبة على البضائع ، يضاف الى ذلك مشاق السفر خاصة في السودان

حيث ترتفع درجـــة الحرارة ويصبح التنقـل شاقاً ، كما ان الشعر الافريقي هو في مرتبة ادنى ، من حيث الجودة ، الشعر اللبناني .

وشعر الماعز انواع عديدة ، وهو يختلف باختلاف الاماكن . فمن جهـــة اللون يتنوع الشعر من الاسود الى الابرش (الرمادي) الى الابيض بالاضافة الى الوان اقل شيوعاً كالاصفر والبني . . . والشعر الاسود هو افضل هذه الانواع من حيث رواج سوقه وهو امتنها ياتي بعده في المتانة الشعر الابيض ثم الشعر الابرش . كما ان طول الشعر يختلف من مـكان لآخر باختلاف قطعـــان الماعز نفسها وباختلاف العوامل المناخية . ففي البلاد الحارة كالسودان ومصر لا يطول الشعر الا بقدر قليل ، وهذا ما يقلل من اهميته . وفي لبنان وحده بوسعنا ان نميز بين عدة مناطق . فشعر الماعز في البقاع طويل ولين ، امـا شعر الماعز في الجنوب فهو اقصر ويميل رأس الشعرة الى الاصطباغ باللون الاحمر ... وهناك انواع من الشعر تحتوي عـــلى كتل صغيرة لزجة وصلبة تسمى « افخاذ » وهـذا يتأتى من الماعز التي توجد في الاماكن الخالية من الوعر (الاعشاب البرية والاشواك والصخور ...) فلا يتسع لها ان تتمسح بهـا لتزيل الاوساخ عنها فتبقى هذه ملتصقة بالشعر وتتجمد مع مرور الزمن . وعدا عن « الأفخاذ » يمكن ان يلتصق بالشعر ما يسمى « بالقطرب » وهي مـادة نباتية لزجة تعلق بشعر الماعز عندما تكون هذه في المرعى .

على هذا فاسعار الشعر الخام تتفاوت فيما بينها وتختلف من حيث

كون الشعر قصاً ام دباغياً ومن حيث اللون وطول الشعرات وليونتها.. الخ. وعلى سبيل المثال فسعر الرطل الدباغي هو عادة ما بين خمس وسبع ليرات (والرطل يزن كيلوين اثنين ونصف الكيلو) ، اما سعر الرطل من شعر القص فيزيد عن ذلك ليرتين ويتراوح عادة ما بين سبع وعشر ليرات . هذا من جهة العامل الذي يشتري الشعر الخام من تجار الشعر في شحيم . اما الذين يشترونه من اماكنه فيحصلون عليه بسعر اقل .

وقبل ان نبدأ بالكلام عن المرحلة الثانية في الصناعة وهي التعريب يستحسن ان نتناول مسألة صبغ الشعر بشيء من التوضيح.

ان البدو ، كما نعلم يفضلون ان تكون خيمهم سوداء اللون ، حتى انهم ينفرون من الألوان الفاتحة الاخرى . ولما كان الشعر يحتوي بالاضافة الى اللون الاسود على الوان أُخرى غير سوداء ، لذلك يعمد بعض صناع النسيج الى صبغ هذه الانواع ، وخاصة الشعر الابرش ، لتصبح سوداء اللون وهذا ما يحدث غالباً عندما تكون اسعار الشعر مرتفعة .

وبالنسبة لشحيم ، ان صبغ الشعر قليل ، وهو يزاول احياناً للشعر المعد ليكون لحمة النسيج ، وذلك فقط من اجل نسج المضارب، اما البسط وغيرها فلا يصبغ الشعر فيها . وانا شخصياً لم اطلع على اية عملية صبغ ، طيلة مدة البحث على الاقل . الا انني سأشرح طريقة الصباغة كما رويت لي :

توضع كمية من المياه في وعاء كبير ، برميل مثلاً ، او دست كبير ثم تسخن حتى الغليان ، وبعد ذلك توضع صبغة الشعر في الوعاء ، وهي مستحضر شبيه بصباغ القماش العادي الا انه مخصص للشعر فقط. ونسبة الصبغة تكون اوقية (٢٠٠ غرام) لكل اربعة أرطال من الشعر (١٠ كلغ). وعندما تتحلل الصبغة في المياه الغالية يوضع الشعر في الوعاء ويحرك طيلة ربع ساعة تقريباً بواسطة عصا خشبية . ثم يخرج الشعر من الوعاء وينشر على احد السطوح ويترك ليجف . ويبدو ان قماش الشعر المصبوغ او على الاقل غالبيته لا يصمد طويلاً امام العوامل الطبيعية ، خاصة مياه الامطار ، فسرعان ما تزول الصبغة ويعود الشعر الى لونه الطبيعي .

ان الشعر الخام ، عند الاستيراد يكون مكبوساً اما ضمن طرود ذات اطواق حديدية (يقال له عند ذلك شعر محدد) او في بالات عادية . وعندما يشتريه العامل يضعه في اكياس من الجنفيص ليصبح معداً للمرحلة الثانية من مراحل الصناعة ، مرحلة التعريب .

التعريب

التعريب هو تصنيف انواع الشعر تبعاً لألوانها . وهو بالاضافة الى ذلك المرحلة الاولية لتنظيف الشعر وتحليله . وهذا العمل الذي قلمـــا يزاوله الرجل هو من اختصاص المرأة يساعدها احياناً بعض اولادها . والتعريب لا يحتاج الى اداة خاصة ، فهو يتم بواسطة اليـد بالاضافة الى مقص عادي وقضيب خشبي .

فالشعر الخام ، سواء أكان شعر « قص » ام شعراً دباغياً ، هو خليط من عـــدة الوان ، ونادراً ما يكون مصنفاً الى لون واحد . والوان الشعر عديدة ، كما ذكرنا ، وهي تختلف باختلاف الوان الماعز نفسها . فقـــد تكون سوداء واللون الاسود يتنوع ايضاً الى اسود حالك يميل الى الازرق واسود عادي واسود يميل الى الاحمرار . . . ، وقد تكون بيضاء صرفة ، وقد تكون رمادية وقد تكون برتقالية .. ان المهم في عملية التعريب هو عزل الشعر الأسود جانباً لانه سيكون معداً لنسج المضارب ، وكذلك الشعر الابيض لانه يلزم لصنع بعض نسج الخيم وصنع البسط والقومات ... ، اما الشعر الابرش وهو اما

ان يكون شعراً رمادياً او خليطاً من الوان أُخرى ، غير سوداء او بيضاء ، فيبقى كما هو اذا كان سيستعمل لصنع القومات ، اما اذا كان الهدف منه صنع بسط ملونة فيعزل كل لون على حدة .

يجرى التعريب عـــلى ارض مستوية بالقرب من المنزل ونتيجة لانتشار استعمال الباطون للبناء في شحيم فيتم التعريب عـــلى ارض مصبوبة بالباطون. وتؤخذ كتل الشعر من الاكياس وتوضع على الارض.

ونظراً لالتفاف الشعر حول نفسه وتلاصقه بفعـل الكبس في البالات تتم في البداية عملية تعريب اولية ، فتؤخذ الكتل بدون ان تفتح جيداً وتصنف الى فئات تبعاً للون الغالب فيها ، وبعد ذلك يتم التعريب الحقيقي فتتناول المرأة قضيباً من الخشب وتضرب به كتل الشعر لكي تتحلل بعض الشيء ولازالة الغبار عنها ، ثم تأخذ كل كتلة على حدة فتفتحها الى خصل صغيرة ثم « تعربها » اي تصنفها حسب الالوان وتضعها كوماً عـــلى الأرض ، كل كومة تتخذ لوناً معيناً ذكرناه اعلاه .

وتعريب شعر القص اسهل بكثير من تعريب الشعر الدباغي ، والشعر القص لا يحتاج عادة الى قضيب لتنظيف الاوساخ منه ، وهو يستلزم فقط المقص لازالة « الافخاذ » و « القطرب » التي ذكرناها ، منه ، امـــا الشعر الدباغي فوسخ ومتلبد ويستلزم استعمال القضيب لكي « ينفض » والمقص لازالة الاوساخ والافخاذ والقطرب والقشرة منه.

ان عملية التعريب التي وان كانت غير متعبة ، الا انها مزعجة على وجه الاجمال ، خاصة عندما يجري التعريب على الشعر الدباغي . لذلك تزاول المرأة التعريب بشيء من الفتور والتأفف . ولا شك في ان للتعريب بعض الاثر على الصحة نظراً لما يتطاير من الشعر الخام من روائح مزعجة واتربة واوساخ وشعر تدخل الى الانف والفم والعينين ... ، ويلاحظ ذلك عند القيام بالتعريب اذ تظهر سحب الغبار والاوساخ كثيفة تحيط بمكان العمل والواقع ان لمناخ شحيم الصحي القوي الفضل الكبير في حماية صناع النسيج من التعرض للامراض المختلفة من جراء التعريب وغيره .

النَدافة

عندما تنتهي عملية التعريب يصبح الشعر معداً للندافة . والندافة في الواقع تقوم بمهمة مزدوجة ، فهي تحلل خصل الشعر وتفرقها الى شعيرات مفصلة ، وفي الوقت نفسه تكون قـــد نظفت الشعر من الاوساخ والاتربة وازالت منه الوبر الناعم القصير ، ليصبح الشعر بعد ذلك معداً تماماً للغزل .

والندافة التي يزاولهـا الصناع في شحيم على نوعين : ندافة يدوية تتم في احـــد المنادف اليدوية وندافة آلية تتم بواسطة مـــا يسمى بالمندف الآلي .

تجرى الندافة اليدوية في مـكان خاص يدعى مندف ، والمنـدف كناية عن رقعة من الأرض تتخذ شكل غرفة صغيرة مقفلة من ثلاث جهـات بجدران من قطع الحجارة « المشقوعة » ومغطاة بسقف من القش او اغصان الشجر او قطع القماش او خليط من هـذا وذاك . فتبقى جهة واحدة مفتوحة تسد عادة بقطعة من الخيش او القماش العادي . وارض المنـدف مرصوفة بقطع واسعة من البلاط الحجري

تتميز بالنعومة والاستواء . وفي نهاية المندف اي في الجهة المقابلة للجهة المفتوحة يوجد منخفض بعرض المندف يبلغ اتساعه حوالي المتر ويقل ارتفاعه عن سطح المندف حوالي الاربعين سنتمتراً . هـذا المنخفض يسمى جورة المندف او « الطاس » كما درج العمال على تسميته وفيـه يتساقط الشعر المندوف والى احـد جوانب الطاس من الاسفل تبرز فتحة تسمى « الطاقة » تؤدي الى الخارج وتسد عادة بقطعة من القماش اثناء الندافة وتستخدم لقذف الأوساخ التي تكنس من الجورة الى الخارج فتوفر على العامل مشقة المشي الى اول المندف في كل مرة ينظف فيها ارض الجورة . وعلى حافة الجورة تبرز ثلاثة اوتاد خشبية ربـــط باثنين متتاليين منها حبلان طول كل منهما يساوي طول المسافة بـين الوتد واول المندف ويتصل الحبلان معاً بهراوة خشبية من جهـــة واحدة ، بعـد ان يلتفان حول بعضهما قبـل اتصالهما بالهراوة بثمانين سنتمتراً تقريباً . يبلغ طول الهراوة حوالي السبعين سنتمتراً وتسمى « عصا الندافة » .

اما الوتد الثالث الذي بقي خالياً فيمكن استخدامه في حالتين : اولاً بالنسبة لنداف واحد فيربط به حبل ثالث يتصل بالهراوة عـلى نسق الحبلين الاولين ويؤدي ذلك الى السرعة في الندافة الا انه قلما يستعمل ، ثانياً بالنسبة لندافين اثنين اذ يربط كل منهما احد الحبلين بوتد ويبقى الوتد الوسطي مشتركاً بين الاثنين .

وتتم عمليـة الندافة اليدوية على الصورة التالية : يضع العامل او « النداف » كتل الشعر التي سيندفها على ارض المندف وعلى مقربة من الأوتاد ، بعد ان يكون قد نظف ارض المندف وارض الجورة بالمكنسة. ثم يقف في اول المندف وقـــد امسك بعصا الندافة بشكل عامودي بحيث يقبض على طرفها الاعلى بكلتا يديه بينما يرتكز الطرف الاسفل على الارض ويكون الحبلان المرتبطان بهذا الطرف في هذه الوضعية مشدودان ، اما الشعر فيكون ملتفاً بهما ومنتشراً حولهما . وبعد ان يهيأ النداف نفسه للابتداء ، بتعديل الوضعية كما يريد ، يباشر بالعمل فيرفع عصا الندافة ويبعدها عن جسمه بحيث تصبح في وضع منحن (الطرف الاسفل يبتعـد عن جسم العامل اكثر من الطرف الأعلى) فيرتخي الحبلان وبحركة سريعة يشد عصا الندافة اليه حتى تعود الى وضعها العامودي الاول ولكن بدون ان تمس الارض فيشتد الحبلان فجأة ويضربان كتل الشعر فيتطاير قسم منهـا ويسقط في جورة المندف . ثم يعيـد العامل الحركة ذاتهـــا : يبعد عصا الندافة عنـه ويرفعها ثم يشدها اليه . . . تكراراً وبسرعة ، وكلما ابتعد الشعر عن مرمى الحبلين ، ويتركز هذا المرمى في المثلث المكون منهما ابتداء من الوتدين حتى اتصالهما ببعضهما ، اعـاده النداف الى الوسط بواسطة الحبلين نفسهما وبدون ان يتحرك من مكانه ، ويستمر العامل على هذا النسق حتى تتطاير كمية الشعر كلها من ارض المندف وتستقر في الجورة . عندها يتناول مكنسة وينظف ارض المندف من

الأتربة والاوساخ والوبر الناعم التي تساقطت من الشعر ويلقي بها الى جانب المندف . وهذه الفضلات ، نظراً لما تحتويه من بقايا حيوانية تنقل فيما بعد الى اشجار الزيتون لتستعمل كسماد لها ، ويقال بأنها ذات اثر بالغ . بعد ذلك يتقدم العامل الى جورة المندف فيتناول كمية الشعر التي ندفت ثم يعيدها الى ارض المندف ويزيل الاوساخ التي ترسبت كذلك في ارض الجورة ويقذف بها من الطاقة الى الخارج . ويعود ، من ثم ، ليعيد العملية ذاتها مرة أخرى ، اي ليندف الشعر كله حتى يتطاير ويستقر في ارض الجورة . ذلك ان الندافة لا تنجز في عملية واحدة بل تتطلب تكرارها مرتين او ثلاثة او اربعة احياناً وذلك للحصول على شعر متحلل تماماً وخال من جميع الاوساخ ، عندئذ يصبح صالحاً للغزل أو « منتهياً » . وكل عملية ندافة تسمى « وجه » فقد يكتفي احدهم بثلاثة « اوجه » للندافة بينما يزيد الآخر على ذلك وجهاً « رابعاً » ان ذلك يعود ، من جهة الى نوع الشعر الذي يندف فهناك بعض انواع الشعر الدباغي التي تستلزم اربعة اوجه على الأقل لكي « تنتهي » ، ويعود من جهة أُخرى الى رغبة العامل نفسه في الحصول على شعر سهل الغزل او اكثر سهولة لأن العامل « النداف » هو معظم الأحيان العامل « الغزال » نفسه الذي سوف يغزل الشعر . والوجه الاخير في الندافة هو وجه التعبئة او وجه « اللف » لان الشعر يعبأ عند ذلك في الجرابات ، وهذه عبارة عن اكياس مصنوعة من جلد الماعز وتتخذ غالباً اللون البني . والتعبئة تستدعي عادة وجود شخص

آخر يساعد العامل بامساك الجراب له ، الا ان العامـل يستطيع ان يقوم بذلك بشيء من التاني والخبرة . اما طريقة التعبئة فتتم كما يلي :

يقتطع العامل قسماً من الشعر الذي استقر بشكل شعرات متناثرة على طبقات في جورة المندف ثم يمد هذا القسم على ارض المندف ويأخذ بعد ذلك بتعديل سماكة الطبقة فيزيد الشعر الى احد الجوانب وينقصه من جانب آخر حتى يحصل على طبقة متساوية السماكة . عندها يمسك بطرفين من هذه الطبقة باليدين معـاً ويبدأ بلفها كما تلف السجادة ثم يضعها كما هي في الجراب اذا كان احدهم قد امسك له به ، اما اذا كان وحده فانه يضع الجراب بـين رجليه ويمسك بالحبل المربوط به بـين اسنانه ويدخل « اللفة » فيه . وبعد ذلك يشذب كتلة الشعر حتى تصبح منسقة في الجراب فينزع من القسم البـارز من الشعر مـا يسمى « بالتقطيفة » . والجرابـات تختلف احجاماً بـين الصغير والمتوسط والكبير . والمتوسط منها ، وهو الأكثر استعمالاً يسع مـا يزيد قليلاً عن الرطل من الشعر . وكمية الشعر التي تندف عادة تعباً في جرابين متوسطين وجراب صغير وتسمى « الطرحة » اي الكمية التي سيغزلها العامل في اليوم التالي .

تجرى الندافة اليدوية عادة عصر كل يوم، ولدى كل عامل تقريباً مندف خاص بـه يقع بالقرب من بيتـه . وعندما كانت الصناعة مزدهرة كانت الندافة تستمر طوال الليل نظراً لكثرة عدد العاملين ،

اما اليوم فأصبحت الندافة متوفرة للجميع في الوقت الذي يريدونه . وعلى كل فالندافة اليدوية بمجملها عمل شاق يتطلب كثيراً من القوة البدنية والصبر والعامل عندما يندف يطلق مع كل ضربة حبل صوتاً يشبه التأوه الذي لا يدل على التعب بل على الجهد الذي يبذل ، كما ان الغبار والاوساخ التي تتطاير من الشعر يدخل قسم منها الى الجسم غير ان العمال اعتادوا على ذلك من جهة بحيث لم يعد يؤثر عليهم ، ومن جهة أُخرى فانهم لا يزالون الندافة في الهواء الطلق الذي يمنع تجمع الغبار ويزيد من نشاطهم .

الى جانب الندافة اليدوية التي تجرى في المنادف اليدوية في شحيم ، أخذ الصناع من أكثر من عشر سنوات يستخدمون « المندف الآلي » لندافة الشعر . وهذا المندف موجود في بناء يقع خارج شحيم ، على مقربة من مزبود اقرب قرى المنطقة الى شحيم ، مؤلف من طابقين خصص الاعلى منـــه لندافة القطن والصوف وقطع القماش الصغيرة وخصص الاسفل لندافة الشعر فقط . والمندف الآلي هو جهاز خاص يعمل بواسطة محرك يدار بالمازوت ويتألف من عـــدد من القشط والدواليب الناقلة للحركة وقطع اسطوانية أُخرى وغيرها . . . ويتم ندف الشعر بواسطة اداة ضخمة اسطوانية الشكل تشبه الطبل وقد دقت على سطحها مجموعة كبيرة من المسامير ثبتت على قطع خشبية صغيرة متلاصقة . وهـــذه الاداة تدور بحركة سريعة جداً وهناك قطعتان اسطوانيتان تقربان الشعر اليها بعد وضعه على قشاط ناقل ،

فتضرب المسامير المتعددة كتل الشعر بقوة وتقذف بها الى الارض . والجهاز بمجموعه مزود بغلاف معدني حافظ وهناك قسطل هوائي شارق في اعلاه يمتص الغبار والأوساخ ويلقي بها الى خارج الغرفة لتنقل بعد ذلك الى اشجار الزيتون .

« ينهي » المندف الآلي الشعر بعد وجهين من الندافة ، سوى بعض الشعر الدباغي الذي يحتاج الى ثلاثة « اوجه » ويأخذ العمال الشعر بعد ذلك في اكياس « ليطيرونه » في المنادف اليدوية لديهم « وجهاً واحداً » للف ، لأنهم لا يستطيعون ان يلفونه مباشرة بعد الندف نظراً لسرعة المندف ولان الشعر حين يوضع في اكياس لا يعود يصلح للف . ولدى صاحب المندف سيارة شحن تنقل البضائع من والى المندف وهو يقوم بالنقل احياناً مجاناً عندما تكون كمية الشعر تزيد على قنطار ونصف ، اما اذا كانت الكمية اقل من ذلك فينقلها العمال بوسائلهم الخاصة .

ان الفئة الكبرى من العمال في شحيم لا تزال تندف الشعر في المنادف اليدوية نظراً لما تتطلبه الندافة الآلية من أجر (اجرة ندافة الرطل ١٥ غرشاً « للوجه » الواحد) ومن نفقات نقل ، والعامل يبحث في جميع الحالات عن الأوفر اولاً . كما ان بُعد المسافة بين العمال وبين المندف الآلي يقف حائلاً دون انصراف الاكثرية الى استخدامه . وهذا المندف كان في شحيم سابقاً لكنه نقل من حوالي

السنتين الى خارجها بناءً لطلب السكان المجاورين نظراً لما كان يحدثه من صوت مرتفع ناتج عن دوران المحرك .

والمندف الآلي ، كما ذكرت ، يعتبر من التطورات الحديثة التي طرأت على المهنة وهو يتمتع بعدة ميزات اهمها انه يندف كمية كبيرة من الشعر في وقت قصير وهو يوفر بالاضافة الى ذلك عـــلى العمال جهداً جسمانياً هاماً ولكنه لا يجعلهم يستغنون كلياً عن المندف اليدوي .

الغـــزل

بعد الانتهاء من ندف الشعر يعبأ هـذا في جرابات ويوضع في المنزل . وعندما ينوي العامل « الغزال » الابتداء بالغزل فانه يأخذ هذه الجرابات ويتوجه بها الى المكان المخصص للغزل المسمى « بلغة ». والبلغة كناية عن جل طويل ومستقيم وذي ارض مستوية ، ينتصب في أحد اطرافه « الدولاب » وهو اداة الغزل وينتهي في الطرف المقابـــل بالمربط أو آخر الخيط . وتبلغ المسافة ما بين الدولاب والمربط حوالي عشرين متراً ، اما بالنسبة للعرض فيكتفي العامل بمتر ونصف المتر من عرض الجل لكي يتمكن من القيام بالغزل . على هـــذا فمعظم الجلالي المنشأة في شحيم تصلح لأن تكون « بلغات » ، وقد يكون الاهالي هم الذين انشأوها في الماضي لهذه الغاية عندما كانت الصناعة في اشد حالات الازدهار . والبلغة تكون عادة قريبة من البيت وذلك لتسهيل نقل المواد والطعام منها واليها ، واحياناً تكون بين البيوت ونادراً ما تكون بعيدة . وتظلل البلغـة بعض الأشجار معظمها من شجر الزيتون وذلك لتخفيف وطأة الشمس عـــلى العمال الذين لا يبرحونها طيلة فترة العمل . وتجدر الاشارة هنا الى ان البلغات في بعض مناطق الصناعة في سوريا مثل : ريحا والشغر وقسم من حمص

منشأة ضمن اقبية مسقوفة لا تدخل اليها اشعة الشمس ولا ميـــاه الامطار ، وهذا ما يمكن العمال من متابعة الغزل ، والحياكة كذلك ، طوال ايام السنة . اما في شحيم ونظراً لكون البلغات قائمة في العراء فان العمال يمتنعون عن الغزل في فترات معينة من السنة حينما يكون الطقس ممطراً . وفي الواقع هناك بالاحرى فترة رئيسية للغزل تبدأ قبل حلول فصل الصيف بقليل وتنتهي بعـــده بفترة أُخرى وهي كناية عن الايام التي يسودها الصحو . امـا في الايام المتبقيـة فيغتنم العمال ايام الصحو القليلة ليقوموا بالغزل .

يبتدىء الغزل في ساعة مبكرة من النهار ، في الخامسة عادة ، وينتهي بعـــد الظهر حوالي الساعة الثالثة . الا ان وقت الابتداء بالعمل كما هو الحال بالنسبة لوقت التوقف ليس ملزماً بل هو متروك لمبادرة العامل . فقد يبتدىء العامل في السادسة او في الثامنة ... او حتى بعد الظهر ، وقـد يتوقف في الخامسة او عند الغروب ... او قبل الظهر . والحقيقة ان صناعة نسيج الشعر تتميز بحرية واسعة في العمل لا تحدها قيود الوظيفة ، والصانع فيها يعمل او يتوقف تبعاً للكمية التي يريد ان ينجزها وتبعاً لشعوره بالتعب وتبعاً لمزاجه الخاص. الا ان توقيت العمل هذا يتناسب مع فترات النهار . ففي بداية النهار تكون الشمس لم ترتفع بعد ويكون الطقس بارداً لذا يسارع العامل الى الافادة من هذه الفترة ليغزل بحيوية اكثر . اما بعد ذلك فترتفع الحرارة في الجو ويزيد تعب العامل وتفتر همته . والتوقف بعد الظهر

هو نتيجة لانصراف العامل بعد ذلك الى ندف الشعر لليوم التالي ، اما اذا كان هناك من يندف له الشعر فبوسعه ان يستمر في العمل .

اذا ابتدأ العامل بالغزل في الساعة الخامسة واستمر في العمل حتى الساعة الثالثة بعد الظهر فبمقدوره ان يغزل ثلاثة ارطال من الشعر كمعدل وسطي تزيد او تنقص تبعاً لمهارة العامل « خفة يده » وتبعاً لنوع الشعر وطول الشعيرات . ويتخلل يوم الغزل فترتان من الراحة: الاولى قصيرة في السابعة تقريباً ، وهي مخصصة لتناول طعام الافطار اما الثانية فأطول وتستمر حوالي الساعة والنصف وتشتمل على تناول طعام الغذاء وفترة أخرى للقيلولة حيث يرقد العامل بعض الوقت الى ظل احدى الاشجار في الجل نفسه . ويجلب الطعام والشراب الى الغزال اما زوجته او احد اولاده وقلما يذهب هو لتناول الطعام في البيت . ان الوقت الباقي المخصص للغزل يجب ان يستغرق كله في الغزل ، فينبغي ان يكون العامل « ثابتاً » لا يبرح مكانه الا للضرورة الملحة ، وهذا ما يعول عليه الصناع الى حد كبير . لذلك فهم يصفون الغزال الذي يكثر من الذهاب والاياب اثناء فترة الغزل بأنه «يلوطع» كثيراً و « مش نافع » اي غير صالح للعمل .

عندما يغزل العامل بتكليف من احد أرباب العمل « المعلمين » فإنه يتناول اجراً قدره ثلاث ليرات لبنانية الا ربع الليرة للرطل الواحد ، وهذا الأجر يزيد او ينقص تبعاً لجودة الغزل ونوع الغزل (سدى ام لحمة) وتبعاً لنوع الشعر (شعر صعب الغزل وشعر هين

الغزل) . اما اذا كان الغزال يعمل لنفسه ، في شعر يملكه هو ، فان اجره يفوق ذلك اذ تضاف اليه نسبة الربح .

ان اداة الغزل هي الدولاب ، وهو يثبت في اول البلغة تضاف اليه لواحق أُخرى تمتـد على طول البلغة وذلك للحصول على خيـط مغزول طويل . فالدولاب كما يقال ، كان في السابق محصوراً ضمن رقعة صغيرة لا تشتمل على بلغـة وكان الغزل يتم بدون ان يتحرك الغزال من مكانه كطريقة غزل خيوط الحرير فكان الخيط المغزول قصيراً . لذا يعتبر الدولاب الحالي من التطورات التي طرأت عـلى المهنة خلال تاريخها الطويل .

والدولاب عبارة عن هيكل خشبي ذي شكل خـــاص ، يبلغ ارتفاعه حوالي المتر عن ارض البلغة وبوسعنا ان نميز فيه ثلاثة أقسام رئيسية وهي :

« الارجل » و « المتعارضة » و « الجسم الدائري » :

١ – « الارجل » :

وهما رجلان خشبيان على شكل ٨ مغروستان جيداً في الأرض وتقومان بحمـــل جسم الدولاب . ولجعلهما منتصبين وثابتين توضع حولهما بعض قطع الحجارة الكبيرة كما تربط احداهمـا ، او الاثنين معاً ، بحبل متين يتصل بوتـــد مدقوق جيداً في الارض ، او بجذع شجرة لأن الشد بالدولاب يكون الى الأمام .

٢ ـ « المتعارضة » :

وهي كناية عن عارضة خشبية مقوسة بعض الشيء ، ومثبتة الى الرجلين بواسطة مسمارين غليظين . وتقسم الرجلان المتعارضة الى قسمين : قسم يحمل « الكوش » وآخر يحمل الجسم الدائري .

أ ـ « الكوش » :

جمع كوشة ، وعددها ثلاثة . والكوشة كناية عن قطعة خشبية تتخذ شكل U لها امتداد على شكل وتد يخترق المتعارضة وفي وسط الحرف U توجد « الغزالة » وهي بكرة خشبية محززة تدور حول محور معدني يخترق الضلعين من حرف U ويبرز من احدهما ، الى الامام ، على شكل حلقة تسمى « مسلة » تكون مقفلة بالنسبة للكوشتين الاولى والثانية من جهة الجسم الدائري ومفتوحة في الكوشة الثالثة . وقد ربط بالحلقتين المقفلتين خيط قطني ثخين طوله حوالي ثلاثين سنتمتراً ويسمى « البدوة » .

ب ـ « الجسم الدائري » :

ويسمى « القبة » ويتألف :

أ ـ اثني عشر وتداً خشبياً تنتشر افقياً على اطرافه وتسمى « العصافير » .

ب ـ « المنيانة » في الوسط (مركز الدائرة) وهي كناية عن كتلة خشبية اسطوانية الشكل ومحززة الى عدة حزوز وتدور حول محور معدني غليظ يخترق المتعارضة ويسمى « سفوت » .

ج ـ اثني عشر قضيباً خشبياً تصل العصافير بالمنيافة وتسمى « النشاب » .

وهناك خيطان من شعر الماعز يربطان اطراف العصافير من كل جهة فيشكلان دائرتين متساويتين .

« المتخالفة » :

وهي كنايـــة عن بكرتان خشبيتان مثبتتان بالمتعارضة بواسطة قضيبين حديديين ويدوران معاً حول محور معدني يسمى كذلك « سفوت » .

« المجرات » :

جمع « مجر » وهي ثلاثة والمجر هو خيط قطني ثخين مقفل يلتف حول الجسم الدائري من جهة وحول احدى الغزالات من جهة أُخرى . والمجران في الكوشتين الاولى والثانية عاديان ليس فيهما اية عقدة ، اما المجر في الكوشة الثالثة فيلتف مرة واحدة حول نفسه عند الغزالة .

الى جانب الدولاب هناك أدوات أُخرى تنتشر على طول البلغة وهي الدقرانة ، المربط ، بكرة الحبل ، الحبل .

ا - الدقرانة :

وهي عصا خشبية طويلة ومنحنية قليلاً في الأعلى تنتصف في منتصف البلغة مع انحراف بسيط عن وسطها ، وقد تثبت عليها ثلاثة حلقات معدنية مفتوحة « شناكل » متتالية تسمى « مسامير » .

ب - المربط :

وهو قضيب خشبي رفيع منحن ينتهي بشكل ٧ وقد ربط به في الوسط حبل قصير طوله حوالي مائة وعشرين سنتمتراً يلتف حول بكرة تحتويها قطعة خشبية اسطوانية الشكل علقت في مكان مرتفع ويحمل الحبل في نهايته حجراً يزن حوالي ثلاثمائة غراماً .

ج - بكرة الحبل :

وهي عبارة عن قطعة خشبية اسطوانية الشكل تحتوي على بكرة في داخلها وقد ربط طرفها بحبل يلتف حول حجر كبير او جذع شجرة لكي تبقى هذه القطعة ثابتة .

و - الحبـــل :

وهو حبل ثخين مقفل مصنوع من عدة خيوط من شعر الماعز

(حوالي ١٧ خطاً) يمتد مزدوجاً على طول البلغة فيلتف عند الدولاب حول احد حزوز المنيانة ثم حول بكرتي « المتخالفة » وفي آخر الحبل يلتف حول « بكرة الحبل » . وفي وسط البلغة يرتفع احد قسميه عن الأرض بواسطة بكرة معلقة في مكان مرتفع .

قبل ان يبتدىء الغزال بالعمل يتمنطق بحزام ربط به بواسطة حبل صغير « المجدب » وهو كناية عن قطعة خشبية رقيقة مستطيلة الشكل ، ثم ياخذ الجراب ويضعه على خصره بشكل منحن (كما يوضع السيف مثلاً) ويلف الحبل المربوط بالجراب حول خصره عدة لفات ثم يعقده . بعد ذلك يتقدم الى الدولاب ويثبت المجدب بالحبل بطريقة خاصة ثم ياخذ بكل يد احدى البدوتين ، في الكوشتين الاولى والثانية ، وبعد ان يرطبهما قليلاً يضعهما في الجراب . عند ذلك يخطو الى الوراء ساحباً معه الحبل الذي يلتف حول المتخالفة فتتحرك هذه ثم تدور المنيانة حول نفسها فيدور معها الجسم الدائري كله المثبت بها وهذا ما يسبب دوران المجرات التي تدير بهذه الحركة الغزالات ، وبدوران الغزالات تدور حلقات الغزالات المتصلة بالبدوتين ثم البدوتين نفسهما. وبفعل التفاف البدوة حول نفسها والتفاف الشعر حولها في الجراب ورجوع الغزال الى الوراء يبدأ الخيط بالظهور وهنا ياخذ الغزال بفرك طرف الخيط المتصل بالجراب بالسبابة والابهام لكي يعدل من ثخانته حسب المطلوب ولكي يحول دون اقتلاع الخيط لكتلة كبيرة من الشعر تبدو

على شكل عقدة وتسمى « حبرومة » او كتلة صغيرة نسبياً تجعل هذا الموضع من الخيط رفيعاً وهذا ما يسمى « بتنسير الخيط » . يجب ان يكون الخيـــط اذن متناسق الثخانة في جميع المواضع . ويتابع الغزال العمل على هذا الشكل ويستمر بالرجوع قليلاً قليلاً الى الوراء ويستمر الخيط بالتكوين حتى يصل الى ما بعد « الدقرانة » بقليل فيضع كل من الخيطين على الحلقتين السفليتين لتخفيف ثقلهما .

ثم يتابع الغزل حتى يصل الى نهاية البلغة فيتوقف عند ذلك ويحل عقدة المجدب من الحبل ثم ينزع الخيطين المغزولين من الجراب ويصلهما معاً بتقريب طرفيهما فيلتفان حول بعضهما بسهولة ثم يعلق الخيط المزدوج في الموضع ٧ من المربط . وبعد ذلك يعود الى اول البلغة ثم ينزع الخيطين المغزولين من البدوتين ثم يصلهما معاً كما فعل في نهاية البلغة ثم يعلق الخيط المزدوج في الحلقة المفتوحة من الكوشة الثالثة . ثم يبدأ من جديد بغزل خيطين آخرين بنفس الطريقة السابقة ، الا انه حين يصل الى نهاية البلغة ويصل الخيطين المغزولين يكون الخيط المزدوج الاول المتصل من جهة بالكوشة الثالثة ومن جهة ثانية بالمربط، قد التف حول نفسه باتجاه معاكس واصبح يشكل خيطاً واحداً . عند ذلك ينزع هذا الخيط ويبدأ بلفه حول يده ، للمرة الاولى فقط، بواسطة قصبة عظمية مجوفة تؤخذ من الماعز او الغنم وهو يتابع السير الى الامام حتى يصل الى اول البلغة فينزع الخيط من « مسلة » الكوشة

الثالثة وهذا الخيط الذي لف على هذا الشكل يصبح فيما بعد ، بفعل تراكم الخيوط المغزولة بعضها فوق بعض كتلة كروية تسمى « كبة » يعلقها الغزال فوق اليته بواسطة شنكل حديدي صغير مثبت في الحزام ويسمى « شوكة المجدب » .

والخيوط المغزولة على نوعين : خيوط سدى وخيوط لحمة . فخيوط السدى ارفع والشعر المغزول فيها افضل ويتألف معظمه من شعر القص . اما خيوط اللحمة فاثخن والشعر المستخدم فيها يحتوي اكثره على شعر دباغي . ان مزيج الشعر المعد للغزل يعود الى انواع الشعر الموجودة لدى العامل ويعود كذلك الى وجهة استعمال الخيوط المغزولة فيما بعد . والغزال يعمل عادة على البدوتين معاً ويسمى الغزل في هذه الحالة « غزل على طاقتين » وهناك من يغزل على « طاقة » واحدة وهذا ما يفعله عادة المبتدئين .

ان الغزل عملية لا تخلو من بعض التعب وهـذا التعب يتأتى في الحقيقة من وضعية الغزل نفسه التي تستلزم الوقوف والمشي الدائمين، كما ان الغزال مضطر لأن يبقى في وضع منحن ينظر الى الجراب لكي يؤمن التناسق بين رجوعه الى الوراء وسحب الحبل ودوران الاجزاء المختلفة وكيفية انتزاع الشعر من الجراب ، واذا كان الغزال قديم العهد بالعمل فبوسعه ان ينظر فترة قصيرة الى جهة ثانية بين الفينة والأخرى . ويصاب الغزال من جراء فرك الشعر المستمر بين اصبعيه

بتشقق فيهما يسبب له بعض الجروح ، ويعالج هـذه الجروح بوضع بعض المساحيق المستعملة محلياً عليها ، الا ان ذلك يترك اثراً دائماً على اصبعيه يكون بمثابة علامة مميزة لعمال الغزل . ويصف الصناع انفسهم الغزل بانه « سفر مخفي » اي رحلة خفية نظراً للمسافة الطويلة التي يقطعها الغزال باستمرار ذهاباً واياباً .

يقوم الغزال نفسه بضبط ادوات الغزل اثناء العمل وذلك تبعاً للاحوال الجوية التي تؤثر على طول الخيط وسرعة دوران الدولاب ، فينقل الحبل مثلاً بين احد حزوز المنيانة لكي يعدل في سرعة الجسم الدائري ، او انه يحرك الكوش مما يجعل المجرات مشدودة او متراخية فيؤثر بذلك عـلى مدى التفاف الخيط المغزول حول نفسه وهو مـا يسمى « بالفتل » وقد يستبدل قطعة الحجر المربوطة بحبل المربـط بقطعة أخرى اخف او اثقل ... الخ.

امـــا صنع الدولاب ولواحقه فيتم بناء للطلب من قبل بعض النجارين المختصين الذين يتوارثون المهنـة عن آبائهم . وتصنع اجزاء الدولاب من شجر التوت او شجر المشمش وشجرة التوت التي تنبت في شحيم تستعمل بحجمها الطبيعي مع شيء من التصنيع بالطبع وذلك لموافقتها متطلبات الصانع من حيث الطول ومن حيث الثخانة . اما الغزالات فتصنع من شجر الزيتون . الا ان الصنع لا يتضمن ايـــة زخرفة مميزة والتفنن فيـــه محدود . ويأتي احياناً صناع سوريا لكي

يعهـدوا الى هؤلاء النجارين بصنع دواليب لهم نظراً لجودة الصنع المتأتية من الخبرة الطويلة . والدولاب يدوم طويـلاً وهو ينقل الى المنزل « يلم » في فترات المطر .

ان خيوط السدى تكون دائماً على شكل « كبة » مؤلفة من خيط واحد متصل . اما خيوط اللحمة فيمكن ان تكون خيوطاً منفصلة، كل خيط ملفوف على حدة . وجميع هذه الخيوط توضع في مكان خاص ، قبو او غرفة صغيرة منعزلة ، فتعلق عـــلى الحبال تمهيداً لاستعمالها في المرحلة التالية من الصناعة ، وهي مرحلة الحياكة .

الحياكة

الحياكة هي عملية تحويل الخيوط المغزولة الى أنسجة جاهزة للاستعمال . واداة الحياكة هي النول المسمى « النول العربي » الذي ينصب عادة بالقرب من المنزل . والعامل الذي يحيك ، أو « الحائك » قد يكون الغزال نفسه الذي غزل الخيوط وقد يكون شخصاً آخر ، وعلى كل فصنّاع النسيج في شحيم يتقنون جميعهم مختلف الاعمال العائدة للصناعة من تعريب الى ندافة الى غزل الى حياكة . والحائك ، بخلاف الغزال ، يقوم بالعمل وهو جالس طيلة الوقت وبوسعه ان يستمر بالحياكة في ايام الشتاء اذا كان النول منصوباً في مكان مسقوف ، كما ان بامكانه ان يعمل في المساء ايضاً تحت ضوء معتدل او حتى ضعيف . لذلك ليس هناك من توقيت للعمل بالنسبة للحائك بل انه ، زيادة عن الغزال ، يتمتع بحرية واسعة في اختيار وقت الابتداء بالعمل والاستمرار به او التوقف عنه . والحياكة تتطلب مكاناً مستوياً طوله حوالي الاثني عشر متراً وعرضه حوالي المترين وهذا ما يتوفر بسهولة في جوار المنازل حيث تنصب معظم الانوال . لذا فالحائك يتناول طعامه في البيت ويقضي فترة الراحة فيه ايضاً . وهو يعمل منفرداً على النول لان النول مخصص لشخص واحد فقط وينبغي ان يكون

على قدر كاف من القوة والاحتمال ، فضعيف البنية لا يستطيع ان يزاول الحياكة . وليس معنى ذلك ان الحياكة شاقة جداً ، بل انها في الحقيقة تستدعي الصبر والثبات من قبل العامل اكثر مما تستدعي القوة لأنها كناية عن حركات متواصلة ومتتابعة ومستمرة .

اذا ابتدأ الحائك بالعمل حوالي الساعة السادسة وتوقف حوالي العصر ، ويشتمل ذلك ايضاً على فترات الطعام والراحة ، فبوسعه ان يحيك ما بين خمسة او ستة ارطال تزيد او تنقص تبعاً لنشاط العامل وكفاءته . واذا كان يحيك لقاء اجر فانه يتناول الليرة والنصف لكل رطل محاك ، تزيد هذه القيمة بازدياد جودة الحياكة حتى تبلغ الليرتين، كما انها تتغير ايضاً تبعاً لحركة السوق وتوفر الحائكين في البلدة .

ان الانسجة التي تحاك على النول العربي ذاته عديدة وهي تصنع بالطريقة نفسها تقريباً . الا ان اكثر هـذه الانسجة اهمية بالنسبة لوفرة الانتاج هي الشقاق . لذلك سأشرح فيما يلي طريقة حياكة الشقة وأشير بعدها الى الخصائص التي تتميز بها حياكة الأنسجة الأخرى .

يتألف النول العربي من قسمين رئيسيين منفصلين : النول بحد ذاته او هيكل النول ، و « البكر » ، يضاف الى ذلك لواحق النول المتحركة .

١ – النول بحد ذاته :

ويشتمل على الاجزاء التالية :

أ - « الفخذين » :

وهما عارضتان ضخمتان من الخشب ، عموديتان ومقابلتان ، تبعد الواحدة عن الأخرى حوالي مترين . وهما مثبتتان جيداً في الأرض وقد جوفت كل منهما من الوسط تقريباً حتى موضعاً يبعد قليلاً عن الطرف الأعلى ، فاتخذت شكل لوحين خشبيين متقابلين مثقوبين خمسة ثقوب متقابلة . وزيادة في تثبيت الفخذين يربط بهما حبل متين يثبت في مكان مرتفع ، في حلقة حديدية بارزة من السقف عادة .

ب - الكليختين :

وهما عارضتان ضخمتان من الخشب مستديرتا الزوايا الى حد ما ، وتخترقان الفخذين ، الأولى ، وهي الكلخية السفلى من الاسفل على مستوى سطح الأرض وهذه الكلخية ثابتة ، اما الثانية فتخترق الفخذين في التجويف الذي ذكرناه اعلاه فيهما وترتكز على قضيبين حديديين ، قضيب في كل فخذ ، يخترقان الثقوب المتوازية . لذا فالكلخية العليا متحركة وهي ترتفع وتنخفض تبعاً لارتفاع وانخفاض القضيبين الحديديين .

ج - الزندين :

وهما وتدان خشبيان غرسا بشكل افقي منحرف الى الأعلى في الفخذين الى جهة الحائك .

د – جورة النول :

وهي كناية عن حفرة بعرض النول وباتساع قدره حوالي المتر وتقع تحت الكليخة السفلى . والحائك يجلس على الطرف الآخر من الجورة ويضع رجليه فيها .

٢ – البكر :

وهو قطعة خشبية اسطوانية الشكل تماماً وملساء يبلغ قطرها ١٥ سم تنتهي عند الطرفين بوتدين يخترقان قطعتين مسطحتين من الخشب تسميان « فخذ البكر » وقد ربط في كل فخـــذ طوق من الحديد ينتهي بحبل متين ويلتف حول قطعة خشبية طويلة تسمى « مد البكر » هي غالباً جذع شجرة . وهذه القطعة الأخيرة تستند الى وتدين متقابلين دقاً جيداً في الارض ليمنعا تحركها الى الامـام . والمكان الذي يدق بهما الوتدان في الأرض يحدد تبعاً لأطوال « الشقاق » التي تحاك في البلدة . ويدق عادة من ثلاثة الى اربعة اوتاد متتالية في كل جهة على طول مكان الحياكة .

٣ – لواحق النول :

وتشتمل على الأجزاء التالية :

أ – القانونـــة :

وهي قسطل حديدي فارغ يرتكز على الزندين ويبرز قليلاً بعدهما من كل جهة .

ب – الكابس :

وهو قطعة خشبية ثقيلة اسطوانية الشكل قطرها حوالي ١٠ سم، دقيقة عند الاطراف لكي يمسك بها العامل .

ج – المشط :

وهو كتلة خشبية ضخمة يبلغ وزنها حوالي خمس كيلوغرامات تظهر عليها بعض الزحافات البسيطة وتحتوي في داخلها على قطعة حديدية يبرز منها صف طويل من الأسنان .

والمشط في بعض جهات سوريا يقتصر على القطعة الحديدية فقط بدون الغلاف الخشبي .

د – المتيت :

وهو كناية عن مجموعة من قضبان والواح خشبية صغيرة مترابطة فيما بينها تتخذ شكل قطعة مستطيلة الشكل يبرز من طرفيها مسمارين من كل جهة . والمتيت قابل للطي ، كما انـه يطول ويقصر بواسطة حركة بسيطة .

هـ – السيف :

وهو لوح خشبي رقيق لا يزيد عرضه عن ثمانية سنتمترات وطوله حوالي المتر وهو بني اللون ولماع ودقيق عند الطرفين .

و - « الخـــلال » :

وهو وتد خشبي رفيع طوله حوالي ١٠ سم دقيق احد الطرفين .

ز - « النـــيرة » :

وهي كناية عن خيط مغزول من وبر المـــاعز ، رفيع ومتقن الغزل ، ملفوف على قضيب قصير يسمى « عود النيرة » .

ح - « الردس » :

وهو خيط ثخين من وبر الماعز مكون من اربعة خيوط مغزولة ، وطوله اكثر من مترين .

ط - « قضيب السدى » :

وهو قضيب حديدي عادي يتراوح طوله بين ٨٠ سم ومتر ونصف.

ي - « عصا المضايفة » :

وهي كناية عن « كابس » دقيق .

ك - « البروة » :

ومعنى البروة القطعة المتبقية من الصابونة بعد الاستعمال . والبروة هي « سيف » ضيق ورقيق .

عندما ينوي العامل المباشرة بالحياكة يحضر كباب الغزل ومختلف

الادوات الأخرى ويضعها بجانبه قرب المقعد ، ويكون احدهم ، امرأته او احد اولاده ، قد حضر لمساعدته ، كما تكون امرأته قد لفت خيوط اللحمة على قضبان خشبية طول كل منها حوالي ستين سنتمتراً بشكل طولي ، تسمى « قضبان » وهي تقوم بدور المكوك في عملية الحياكة .

تبدأ مرحلة الحياكة بعملية « التسدي » اولاً . وفي هذه العملية يتم مد خيوط السدى المغزولة على النول . اما طريقتها فتتم كما يلي :

يجلس الحائك في مقعده ويأخذ قضيب الحديد ويربط بـه اول الخيط من الكبة ثم يسنده الى الكليخة السفلى ويعطي الخيط الذي اصبح مزدوجاً الى الشخص الذي سيساعده ويكون هذا الأخير واقفاً قبالته وقد مد يده من فوق الكليخة العليا . وعندما يمسك هذا بالخيط يذهب به الى البكر فيلفه فوقه ثم يخرجه من الأسفل ويعود به الى الحائك الذي يكون في هـذه الأثناء منهمكاً بكر الخيط من الكبة ، فيتناول الحائك الخيط من تحت الكليخة السفلى ويلفه حول قضيب الحديد بعد ان يدير اتجاهه بزاوية قدرها تسعون درجة ثم يعود ليناول الخيط المزدوج دائماً ، الى المساعد من فوق الكليخة السفلى .. وهكذا دواليك حتى يبلغ عدد الخيوط حوالي مائة واربعين خيطاً متلاصقة على الكلختين وقضيب الحديد والبكر .

بعـد عملية التسدي تأتي عمليـة « التنيير » اي وضع « النيرة » فيأتي الحائك بالردس ويربطه في طرفي الزندين بدون ان يشده ليبقى متراخياً ثم يضع القانونة على الزندين بحيث تكون بين الردس والفخذين،

لذا فانها تربط الى الزندين بواسطة حبل قصير على مسافة قدرها ثمانية سنتمترات من الفخذين . ثم يبدأ الحائك بعد ذلك بالتنيير فيتناول قضيب النيرة ويربط طرف خيط النيرة بخيط السدى الاول بمحاذاة القانونة ثم يلف النيرة حول القانونة ويعود ليلفها حول الخيط الثالث من السدى وبعد ان يلفها ايضاً حول القانونة يلفها حول الخيط الخامس ... الخ. اي انه يلف النيرة حول خيطاً من كل خيطين متتاليين ، وهذا ما يسمى « بالمخالفة » . ويتابع الحائك هذه العملية حتى يصل الى نهاية خيوط السدى وعند ذلك تصبح هذه الخيوط وكأنها قسمت الى قسمين متساويين متداخلين : قسم ثابت وقسم متحرك .

وهنا تبدأ عملية الحياكة الفعلية فيدخل الحائك « الكابس » بين طبقتي الخيوط فوق النيرة والقانونة ثم ينزله بشدة ليستقر على القانونة فتنفصل الخيوط الموجودة تحت القانونة الى قسمين ايضاً . عندها يدخل السيف بين هاتين الطبقتين وينزل به الى الأسفل ثم يرفعه قليلاً ويلويه حتى يصبح في وضع افقي فتتفرق الخيوط فيدخل قضيب اللحمة بعد ان يربط طرفه بقضيب الحديد ويخرجه من الطرف الآخر مما يترك بين طبقتي خيوط السدى خيط اللحمة الذي يسمى « لقحة » . بعد ذلك يعيد السيف الى وضعه الأول ثم يدق به قليلاً على الخيط ويخرجه . ويتناول « الخلال » فيمر به (كأنه يرسم خطاً) فوق الخيوط الموجودة تحت القانونة ثم يرفع الكابس ويعود ليمر

بالخلال مرة أخرى فوق الخيوط تحت القانونة ويتناول السيف بيده اليمنى و يضع يده اليسرى منفرجة على الخيوط فوق القانونة ويضغط عليها قليلاً فتتفرق هذه الخيوط تحت القانونة فيدخل السيف بالقدر الذي تفرقت به ثم ينقل يده الى الخيوط التالية ليضغط عليها ويدخل السيف اكثر ... وهكذا حتى يبرز السيف من الجهة الأخرى . عندها يتناول المشط بكلتا اليدين (ويكون موضوعاً في البداية على الأرض اما بعد ذلك فيوضع على المتيت الذي يثبته بواسطة المسامير عـــلى طرفي النسيج الذي يكون قد تكوّن ، وكلما انخفض مستوى المتيت بفعل الحياكة اعاده الحائك الى الاعلى) ويدق به على خيط اللحمة عدة دقات ، ويمسك بالسيف ويلويه حتى يصبح افقياً ويدخل خيط اللحمة او « اللقحة الثانية » بين طبقتي الغزل ، من الجهة الثانية هذه المرة ، ثم يعيد السيف الى حالته الأولى ويدق بـه قليلاً عـلى الخيط ويخرجه . ويعود ليمسك بالكابس وينزل به على القانونة ويتناول الخلال ويمر به عـــلى الخيوط تحت القانونة ثم يرفع الكابس ويمرر بالخلال مرة أخرى على الخيوط ويضع يده على الخيوط فوق القانونة ليدخل السيف ...

ويستمر الحائك على هـــذا المنوال ليقوم بالحركات ذاتها فيأخذ النسيج بالبروز ويبدأ قضيب السدى بالتحرك بفعل الدق بالمشط فيمر تحت الكليخة ثم يصل الى البكر ويلتف حوله . وبين الفينة والفينة يمسح الحائك السيف بقطعة من « الشمع العسلي » المستخرج من قفير

النحل وذلك لتسهيل العمل بـــه وكلما فرغ قضيب اللحمة تناول الحائك قضيباً آخر ووصل طرفي الخيطين بفسخ احدهما ، ويكون مزدوجاً كما سبق واشرت عند الكلام عن الغزل ، وادخال الآخر به في موضعين او ثلاثة . كما ان الشقة بفعل النسج تتقلص وتشتد « تزير » عندها يعمد الحائك الى ارخائها اما بانزال الكليخة السفلى قليلاً واما بحل الاطواق الحديدية عن « مد البكر » . وعندما يجتاز قضيب السدى الكليخة العليا يصبح مجال استعمال الكابس والسيف ضيقاً فيستبدلهما الحائك « بعصا المضايقة » (وكلمة عصا المضايقة تعني تضايق الحائـــك من استعمال الكابس واستبداله بعصا لتسهيل العمل) والبروة ، ويتابع الحياكة حتى يتقارب طرفا النسيج . عندها يتوقف عن الحياكة ويخرج القانونة من الشقة ثم ينزع الردس فتتفكك خيوط النيرة وتصبح جميع خيوط السدى منفصلة . بعـــد ذلك يتقدم الى البكر فيحل الأطواق الحديدية فتتراخى الشقة ويصبح بامكانه نزع قضيب السدى منها . ويتم نزع هذا القضيب شيئاً فشيئاً فيسحب الحائك منـــه سنتمتران تقريباً فتتفرق حوالي الثمانية خيوط فيربط كل اربعة منها ، وتسمى جدلة بالأربعة التي تليها ثم يعود الى سحب سنتمران آخران... وهكذا حتى يأتي الى الطرف الآخر من الشقة . عند ذلك تكون هذه قد انفصلت تماماً عن النول فيلفها كما تلف السجادة على شكل اسطواني « محدلة » ويضعها في المستودع المخصص للنسيج .

ان الشقاق التي تحاك في شحيم ذات اطوال مختلفة . وهناك اطوال

متفق عليها بين الصناع ، مثلاً الشقة « الثلاثينية » والشقة « الاربعينية» والشقة « الخمسينية » . واطول شقة تلك التي يبلغ طولها ١٢ باع او مـــا يعادل ١٨ متراً . وتقاس الشقاق « بالباع » الذي يبلغ مـتراً ونصف لأن البدو يقيسونها به عند المشترى ، والباع هو المسافة بين اليدين عندما يكون الذراعان ممدودان من كل جهة .

والانسجة الأخرى المصنوعة من وبر الماعز سواء اكانت معدة للمضارب او لغيرها تحاك كلها على « النول العربي » ذاته . وطريقة الحياكة هي نفسها تقريباً مع بعض الاختلافات القليلة التي سنذكرها في ما يلي :

أ - الطريقة والرواق والمخمل :

تحاك كالشقة تماماً . اما الزخرفة البيضاء في وسط الرواق فهي في خيوط السدى فقط .

ب - البـــلاس :

يحاك كالشقة تماماً الا اذا دخلته خيوط من الصوف فيدق عندها بالمشط دقاً أخف . وهو ينصب حول الكلختين فقط ، كما انه اعرض من الشقة والزخرفات تكون في تنوع الوان خيوط السدى أيضاً .

ج - القومـــات :

تنصب حول الكلختين وحول البكر . وهي أعرض بكثير من الشقة . وتحاك دفعة واحدة وبعد ذلك تقسم الى قومات منفصلة . غير ان خيوط السدى فيها متباعدة وكذلك خيوط اللحمة لأنها تدق بواسطة السيف دقاً خفيفاً ولا يستعمل فيها المشط . كما ان النسيج لا يتحرك فيهـــا اثناء الحياكة بل يتوجب على الحائك ان يجره بيديه بمساعدة شخص آخر .

د - العدل - المخالي - الاخراج :

تحاك كالشقة تماماً ولكن عـــلى الكليختين فقط . كما ان خيوط اللحمة يجب ان تكون ، كخيوط السدى ، رفيعة ومن الشعر القص الجيـــد .

وهذه القطع تقص فيما بعد وتفصّل ثم تخاط بخيوط من شعر الماعز.

البيع

ان بيع الانسجة الجاهزة يتعلق فقط بأرباب العمل من الصناع في شحيم . والواقع ان جميع العمال يمكن ان يكونوا ارباب عمل وذلك حين يشتروا الشعر ويصنعوه لأنفسهم او يكلفون عمالاً آخرين لمساعدتهم . وبصورة عامة فان معظم ارباب العمل « المعلمين » يعملون كذلك في الصناعة . وبالاضافة الى ذلك هناك فئة من العاملين في الصناعة يعملون كوسطاء في البيع لقاء عمولة « قومسيون » فيكونوا دوماً على انصال بتجار النسيج في الخارج وبنفس الوقت على اتصال بأرباب العمل في شحيم لينقلوا اليهم متطلبات البدو من الصناعة في كل سنة . وعلى هذا يعمد الصناع الى حياكة شقاق ذات اطوال محدودة سلفاً وفي الغالب بناء للتوصية . والبيع يتم اما بحضور التجار الى شحيم لشراء النسيج منها واما بسفر ارباب العمل أنفسهم او التجار الوسطاء « السماسرة » الى الخارج لبيع الانتاج هناك . غير ان شحن النسيج الى الخارج وتصريفه هناك بدون اتفاق مسبق بين التجار في الخارج وبين الصناع الذين يشحنونه قد يكون في اكثر الأحيان مجلبة للفشل والخسارة نظراً لما تتطلبه هذه الخطوة من خبرة بأحوال السوق

ومعرفة سابقة بالتجار ، لذا يقتصر السفر الى الخارج عـــلى التجار العملاء وقلة من ارباب العمل .

وعملية البيع بين التاجر ورب العمل تحصل بالاتفاق بين الطرفين، فرب العمل من جهة يجري حساب النفقات التي تكبدها في سبيل الحصول على الانتاج النهائي من عمليات شراء وكلفة ونفقات متفرقـة بالاضافة الى نقص الوزن في المادة الخام التي تبلغ اكثر من ٣٠٪ للشعر الدباغي وحوالي ١٥٪ للشعر القص . والتاجر من جهة أُخرى يختبر النسيج ليتعرف الى جودتـه باللجوء الى بعض الوسائل الفنية . فهو يختبر جودة الحياكة اذا كانت الشقـــة مدقوقة جيداً ام لا ، بطي النسيج حول احد اصابعه ليرى مدى مـا يشاهد من تلك الاصبع . ولكي يتعرف الى نوع الشعر المصنوع منه النسيج ، اهو شعر دباغي ام شعر قص ام خليط منهما ام ان اوباراً أُخرى قد دخلت في صنعه، فانه قد يكتفي بالنظر الى النسيج ، اذ ان الشعر القص يتميز بلمعانه بخلاف الشعر الدباغي ، كما ان هـذا الأخير يعرف من بعض الأوساخ التي تبقى عالقة بالنسيج رغم التعريب والندافة ، وقد يعمد احياناً الى شم النسيج فرائحة الشعر القص نافذة وتختلف عن رائحـــة الشعر الدباغي . وكذلك يلاحظ التاجر ما اذا كان الشعر مصبوغاً ام طبيعياً، فالشعر المصبوغ يبدو اسود مائلاً الى الازرق ، وبوسعه ايضاً ان يمسح بالنسيج قطعة قماش مبلولة بالماء فاذا اصطبغت هذه القطعة باللون الاسود فمعنى ذلك ان الشعر مصبوغ ... الخ.

بعد سلسلة الاجراءات هذه تبدأ المساومة حول السعر والواقع ان سعر النسيج ليس ثابتاً وهو يتغير من سنة لأخرى تبعاً للعرض والطلب . والشقاق تقاس بالباع ، لأن البدو حين يشترونها يقيسونها بالباع (الباع يعادل متراً ونصف المتر) ، وبعد ذلك توزن ثم تباع على اساس سعر الرطل . وكمعدل وسطي يبلغ ثمن رطل المنسوج حوالي ١٤ ليرة لبنانية اذا تم بيعه في مكان العمل ، اي في شحيم ، وهذا السعر يرتفع اكثر اذا بيع النسيج في الخارج .

ومعظم الانتاج الشحيمي من نسيج المضارب يتم تصريفه في السوق الأردنية ، وبصورة خاصة في عمان . كما ان معظم التجار الذين يأتون الى شحيم هم تجار اردنيون . وقد فتح في الآونة الأخيرة باب جديد لتصريف البضائع في الحجاز وقطر والبحرين من قبل أحد التجار الشحيميين الذي كان يدير بعض الأعمال التجارية في قطر فحاول بيع الانتاج الشحيمي هناك وكان ان وفق في ذلك وأخذت الكميات المصدرة الى قطر والحجاز تزداد سنة بعد سنة سيما وان النسيج الشحيمي يحظى برواج سوقه نظراً لجودته ، على الرغم من سعره المرتفع نسبياً .

ان الشقاق والطرائق ، جمع طريقة ، والرواقات والمخلات يتم تصريفها لدى البدو . اما الأنسجة الأخرى مثل البسط والقومات

والمخالي والخراجات والعدل وغيرها فقد يشتريها البدو ايضاً ، ما عدا القومات ، الا ان معظم انتاجها يتم تصريفه خارج السوق البدوية .

فالبسط تصنع عادة بنـــاء للطلب ، واول مستهلكي البسط هم الشحيميون انفسهم فقل ان تجد بيتاً لم تفرش فيه بعض البسط ، وعدا عن الشحيميين تطلب البسط في قضاء الشوف نفسه من قبل الدروز الذين يستخدمونها كسجاد للبيوت ، كما تطلب في جهات البقاع حيث تستخدم اما كسجاد للبيوت او لبعض الاغراض الزراعية لتنقية الحبوب من التراب مثلاً (تصويل الحبوب) .... وتستخدم البسط ايضاً في بعض الفنادق في المدن فتمد في الممرات والمماشي ويقال بأن بعض البسط تصدر الى الخارج ، كالولايات المتحدة مثلاً .

اما القومات فتصنع كذلك بناء للطلب وتصريفها يتم في المناطق التي تكثر فيها زراعة الزيتون خاصة جهات الشويفات والكورة وحاصبيا ، بالاضافة الى شحيم نفسها بالطبع .

وفيما يتعلق بالقومات اشير هنا الى انه يوجد نوع آخر منها يصنع من خيوط « الليف » وتكون القومة عادة مستديرة الشكل ، وهناك صانع في شحيم يعمل بهذه المهنة . الا ان قومات الليف ، كما يبدو ، مخصصة لبعض انواع المكابس ذات الضغط المرتفع .

وفيما يتعلق اخيراً بانسجة المخالي والخراجات والعدل ، فان هذه

تصنع بناء للطلب وتفصل وتخاط في شحيم ثم تسلم بعـــد ذلك الى الطالب وتجدر الاشارة هنا الى ان هذه الأنسجة قد اصبحت ضعيفة الانتاج في الآونة الأخيرة .

ان معظم النسيج الذي يصنع في شحيم يتم بناء للطلب ، اما القسم الآخر فيخزنه الصانع تمهيداً لتصريفه ، ذلك ان حركة سوق النسيج ، كما عبر عن ذلك احد الصناع ، كحركة المد والجزر ، وعلى العامل بالمهنة ان يتحسب دوماً لجميع الاحتمالات الممكنة .

نتائج عامة

من النتائج التي تظهر من خلال دراسة صناعة انسجة شعر الماعز في شحيم ان هـذه الصناعة تمر في الوقت الحاضر بمرحلة حاسمة تقف عندها على مفترق طريقين : فهي امـا ان تنمو وتزدهر فتبعث من جديد في المستقبل واما ان تبقى على ما هي عليه فتستمر بالهبوط والانخفاض لتزول تدريجياً وبصورة طبيعية فيما بعد . وذلك لاقتصار الصناعة ، تقريباً ، على افراد الجيل القديم مع قلة من افراد الجيـــل الجديد . وهذا ما يجعلنا نستنتج انه بفقدان توارثها التقليدي جيـلاً بعد جيل ، كما كان يحصل في الماضي ، فان ذلك دليل على تقهقرها السريع بنهاية الجيل العامل بها ان لم تكن نهايتها المحتومة .

ان سبب تأخر الصناعة على هذا الشكل يعود بصورة خاصة الى انصراف السكان عن العمل بها ، لكي يعملوا في مجالات أُخرى ، كحقل الاستخدام مثلاً ، تتيح لهم الحصول على ايراد اكثر ثباتاً واستقراراً ، بفعل ترجرج حركة سوق النسيج وقلة استقراره بالاضافة الى ازدياد حدة المنافسات الخارجية .

والواقع ان اعتماد الصناعة في شحيم بشكل رئيسي عـــلى انتاج

الأنسجة للمضارب قد ادى الى هذه الحالة المتدنية . فسوق التصريف البدوية تتناقص يوماً بعد يوم نظراً للتبدل الحاصل في نمط حياة البدو واستقرار قسم كبير منهم وسكنهم في البيوت المبنية .

لهذا ينبغي ان تخرج الصناعة عن محور الانتاج الواحد حيث يبقى مصيرها مرهوناً بمصيره لتتجـــه الى الانطلاق في مجالات جديدة او لتنمية اوجه للانتاج كانت تبدو اقل اهمية بالنسبة لأنسجة المضارب ، كانسجة الشعر والصوف غـــير المعدة للمضارب ، وبذلك تعود الى الصناعة حركتها وتستعيد نشاطها لتستقر على اسس أكثر متانة وثباتاً.

فصناعة البسط مثلاً من شعر الماعز او صوف الغنم او من الاثنين معاً يمكن ان تكون افضل بكثير مما هي عليه الآن اذا وجه الصناع اهتمامهم الى التفنن في زخرفتهـا وانتاج قطع متعددة الأحجـام تصلح لعدة اوجه للاستعمال كما ان ادخال الوان جديدة في الحياكة ، عـدا عن الألوان التقليدية الطبيعية ، بواسطة صباغ ثابت للشعر او للصوف، يمنح البسط رونقاً وجاذبية ويكفل لها رواجاً افضل وسوقاً اكثر تصريفاً فضلاً عن ميزة المتانة الاساسية التي يتمتع بهـــا شعر الماعز بصورة خاصة . وما يقال عن البسط يمكن ان يقال عن انتاج الانسجة الأخرى ، الى جانب الابقاء على صنع انسجة المضارب ، الا ان ذلك يبقى رهناً بالتصريف وايجاد اسواق جديدة للمنتجات .

وكذلك فإن جمود الصناعة خلال فترة طويلة في الايام الممطرة

يمكن ان يعالج بانشاء اقبية مسقوفة للغزل والحياكة معاً على غرار ما هو معمول بـــه في بعض جهات سوريا ، وبذلك يستمر العمل في الصناعة طوال السنة فتزول البطالة الموسمية بالنسبـة للصناع ويزيد دخلهم .

ومن جهة أخرى من الممكن ادخال الآلة على الصناعة ولو بصورة جزئية ، حتى تتمكن هذه الصناعة من مسايرة ركب التطور وازالة الصفة البدائية عنها ، مما يؤدي الى ازدياد الانتاج وتحسينه وتوفير قسط كبير من الجهد والازعاج على العاملين فيها اللذين يبدو انهما كانا سبباً مباشراً في انصراف كثير من السكان الى العمل في قطاعات أخرى اقل عناء ، وذلك على حساب الصناعة نفسها . ويروي الصناع في شحيم ان الآلة قد ادخلت فعلًا منذ عدة سنوات على الحياكة بواسطة مغترب شحيمي كان يعمل في أحد المصانع في الولايات المتحدة ، فابتكر هذا نولاً آلياً يقوم بجميع حركات الحياكة ، ما عدا ادخال « قضيب اللف» او المكوك حيث كان احدهم يقوم باجراء ذلك ، الا ان هذا المغترب قد رحل عن شحيم فجأة آخذاً معه سر تسيير النول الالي الذي لم يطلع عليه أحد . ان هذه التجربة وان كانت عرضية تدلنا ولا شك على امكانية استخدام الآلة في الصناعة الى حد ما .

ان ثمـــة ظاهرة عامة تلاحظ في جميع المناطق اللبنانية بدون استثناء وهي مسألة النزوح القروي الى المدينة . فالمدن اللبنانية الرئيسية

تمارس حركة جذب واسعة النطاق تجعل كثيراً من القرويين يهجرون الريف اللبناني ليستقروا كلياً او جزئياً فيها .

وبالنسبة لشحيم ، فهذه الظاهرة تتخذ طابعاً جدياً ، الا ان لشحيم وضعها الخاص حيث انها قرية غير زراعية وكانت تعتمد على حرفة رئيسية ضعف النشاط فيها الى حد كبير .

لذا فقد اعتمد السكان في سبيل معيشتهم على العمل في نطاق الخدمات لدرجة التخصص . فالنهضة العلمية في شحيم بالغة الازدهار ، ومعظم الجيل الحالي من الشباب يتمتع بكفاءات علمية عالية وكثير من السكان يحتل مراكز هامة في الأدارات العامة . الا ان هذا الاتجاه الجماعي في العمل ، الذي غالباً ما يكون في المدن ، وخاصة في بيروت ، قد جرف معه الفئات الأخرى من ابناء البلدة الذين نزحوا الى بيروت ليعملوا فيها ايضاً . وهذا ما يشكل في الوقت الحاضر خطراً بالنسبة للسكان الذين لم ينزحوا بعد لأنهم قد ينساقون في المستقبل في هذا التيار . والعاملون في الصناعة اصبحوا تحت تأثير عامل نفسي معقد ، فهم يشعرون بمركب نقص تجاه العاملين في المدن ، حتى ولو كان هؤلاء يشغلون اعمالاً متواضعة . وقد بدرت لي من احدهم عبارة عابرة اثناء احدى المقابلات اذكرها كما سمعتها تماماً . لقد قال لي :

« تصور انني لا اخجل من العمل في الصناعة وانني امر يومياً بالساحة وانا احمل جراب الشعر » .

ان هـــذه النفسية تبرز لدى كثير من العاملين الذين يشعرون بمركب نقص تجـــاه المستخدمين الذين « يقبضون الرواتب شهرياً » بينما هم مضطرون الى العمل المستمر واحتمال التعب والازعاج في سبيل الحصول على لقمة العيش .

ان اعادة التخطيط الاقتصادي والاجتماعي في البلدة ضروري جداً. كما ان الاهتمام بأمور الصناعة وتشجيع السكان للعمل بها وذلك بمحاولة ايجاد اسواق جديدة للتصريف وتوفير الضمانات لهم عند هبوط الموسم ومساعدتهم مادياً ومعنوياً والسماح لهم بانشاء نقابة مهنيـة ، كل ذلك يبدو ضرورة ماسة طالما ان هدفنا هو تنمية القرية والحد من الهجرة الى المدن .

ملحق خاص
بالرسوم الفوتوغرافية

١ مندف يدوي

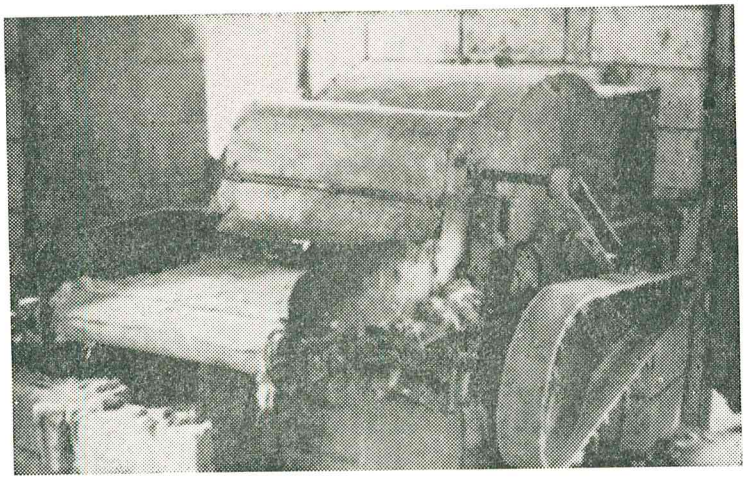

٢ المندف الآلي

٣ - دولاب الغزل

٤ - البلغة او مكان الغزل

٥ – غزال اثناء العمل يغزل الشعر الأبيض

٦ – المربط أو آخر الخيط ونهاية البلغة

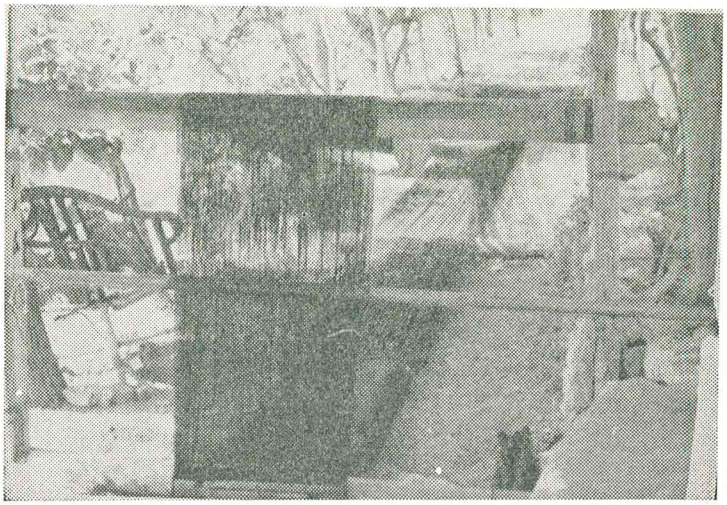

٧ – النول العربي وقد نصبت عليه « شقة »

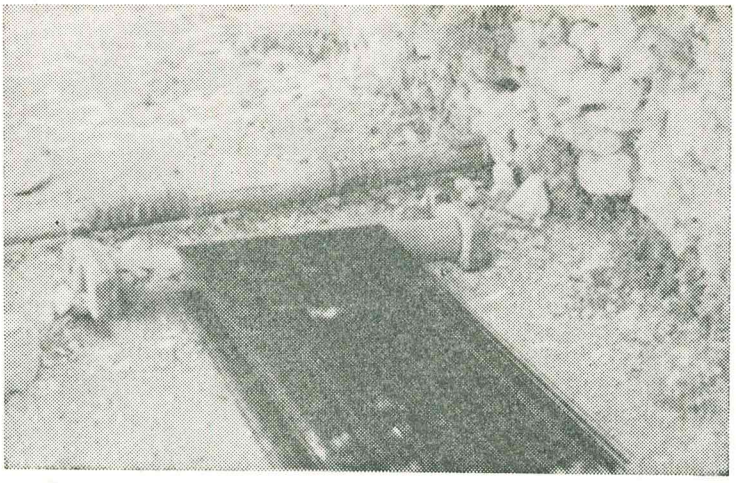

٨ – البكر ، القسم المنفصل عن النول

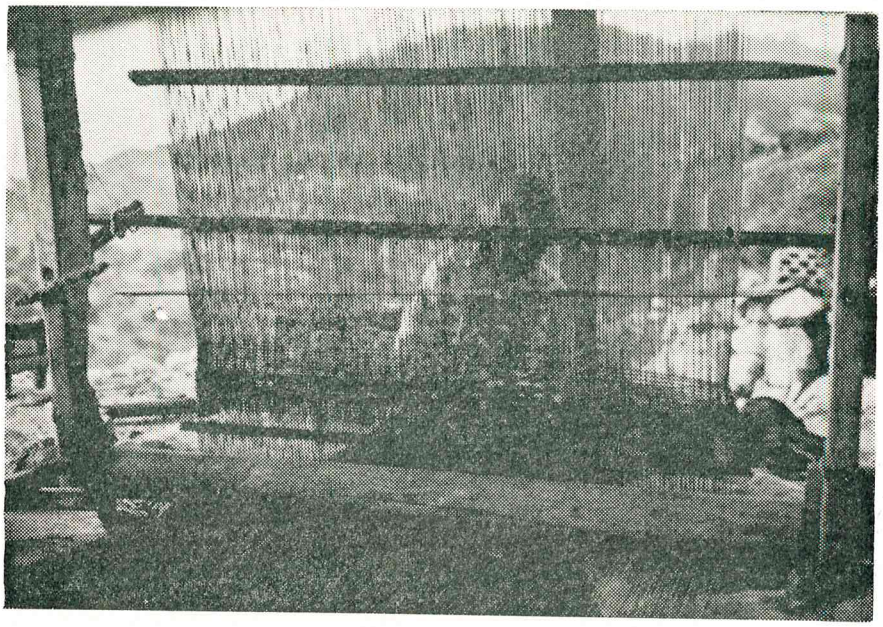

٩ – حياكة « القومات »

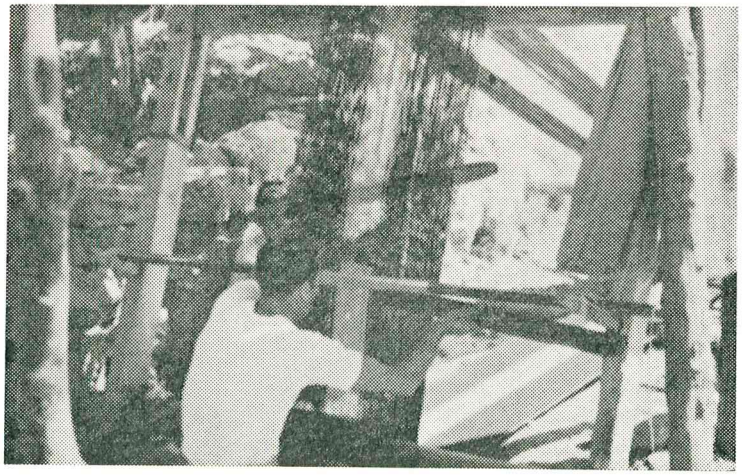

١٠ – حائك اثناء العمل وهو يحيك « رواق »

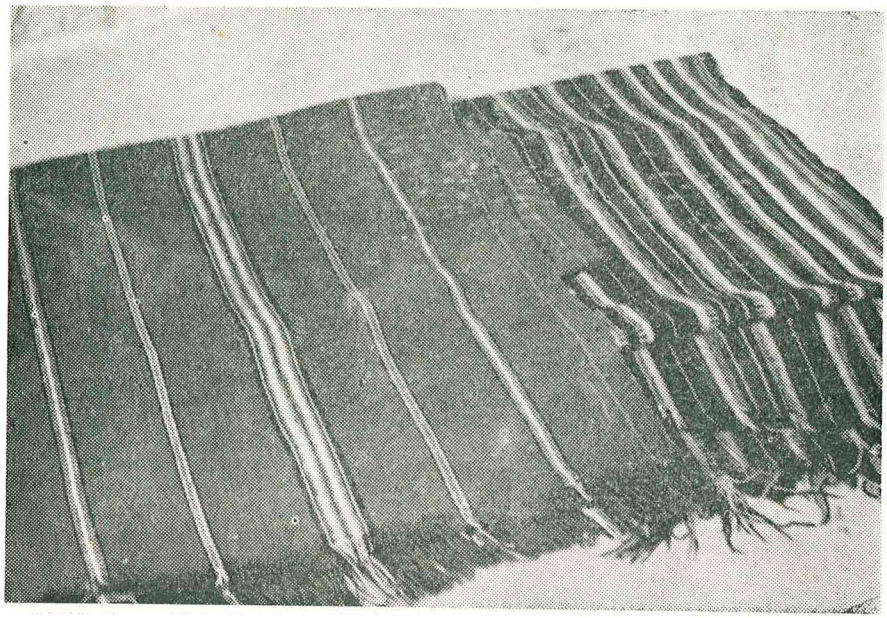

١١ – « بلاسان » او سجادتان

الاول الى اليمين مصنوع من شعر الماعز الطبيعي وصوف الغنم المصبوغ باللون الاحمر .

والثاني الى اليسار مصنوع من شعر الماعز الطبيعي الصرف . واللون البني هو اللون المعروف « بالأحمر » وهو اللون الطبيعي للماعز المسماة بالماعز « الشامية » .

والجدير بالذكر ان هـذان البلاسان لا يزالان مفروشان في ارض احدى البيوت في شحيم وقد صنعا منذ حوالي عشرين سنة .

فهرس المواد

	صفحة
تمهيـــد	٣
القسم الاول : البدو	٦
القسم الثاني : انسجة الشعر	١٧
الانسجة المعدة لتكوين المضارب	٢٢
الانسجة التي لا علاقة لها بالمضارب	٢٤
القسم الثالث : الصناعة في شحيم واوضاع العاملين فيها	٢٨
الوضع الاقتصادي والارتباط بالبيئة	٣٨
وضع المرأة	٤١
الثقافة المادية	٤٢
الوضع الاجتماعي	٤٧
القسم الرابع : مراحل الصناعة في شحيم	٥١

الشعر الخام وكيفية الحصول عليه ٥٢
التعريب ٦٠
الندافة ٦٣
الغزل ٧١
الحياكة ٨٣
البيع ٩٥

نتائج عامة ١٠٠
ملحق خاص بالرسوم الفوتوغرافية ١٠٥
مصادر البحث ١١٣

مطابع الكريم الحديثة
جونيه - لبنان
تلفون: ٩٣٠٢٧٧

mouton, d'autre genres de toiles : tapis caractéristiques des villages et pièces utilisées dans les presses des olives pour en extraire l'huile.

Aujourd'hui, ce genre d'artisanat souffre d'un déclin grave, car l'exode rural et un certain intérêt pour d'autres travaux plus directement rentables a porté les gens à abandonner ce métier.

Il y a précisément intérêt à étudier dans le village de CHHIM un certain changement socio-culturel dû à l'apparition de nouveaux métiers et à l'abandon du tissage de tentes. C'est l'attrait qu'exercent de plus en plus les centres urbains qui a provoqué ces changements.

Il y aurait lieu de mentionner, ici, certaines raisons qui auraient entraîné le déclin de la fabrication des toiles de tentes à Chhim.

D'abord la crise palestinienne, car la Palestine était un grand importateur de toiles et de nombreux Chhimiens pratiquaient ce métier en Palestine même ;

ensuite la concurrence syrienne, car la main d'œuvre ainsi que le poil de chèvre sont moins coûteux en Syrie.

enfin les difficultés et la lenteur du processus de fabrication et surtout l'abandon de ce travail de la part des femmes chhimiennes — la main d'œuvre féminine s'étant avérée, ici, irremplaçable.

A présent la toile fabriquée à Chhim se vend surtout à la jordanie. Des commerçants jordaniens se rendent à Chhim à chaque saison pour y conclure marché. Une autre partie se vend, en outre, dans les pays arabes tels que l'Arabie Séoudite et Qatar.

Fabrication des toiles de tentes à Chhim

Les toiles de tentes bédouines sont œuvre familiale. Leur tissage se fait surtout à la main malgré l'usage éventuel de certains instruments simples. Le poil de chèvre est la matière première utilisée.

Les étapes de fabrication de ces toiles peuvent être énumérées comme suit :

1° - Achat des poils à des commerçants libanais ou bien dans certains pays arabes.

2° - Nettoyage puis triage des poils selon la couleur : les bédouins préférant toujours la couleur noire pour leurs tentes.

3° - Ebouriffage des poils dans des endroits spéciaux ou bien à l'aide de machines semi-automatiques.

4° - Filage des poils sur des terrasses longues et étroites et à l'aide d'un outil fait de bois et de métal.

5° - Tissage des fils à l'aide d'un outil spécial de bois et de métal que l'ouvrier manie, étant assis, contrairement au travail de filage qui nécessite, de la part de l'ouvrier, un va-et-vient permanent.

Enfin, vente de la toile achevée à « **Chhim** », c'est-à-dire au village même ou bien directement aux bédouins.

Cette manière de fabriquer la toile de tente se pratique dans plusieurs pays et surtout en Syrie et au Liban.

Au Liban le plus grand centre de fabrication est le village de **Chhim** qui compte plus de 8000 habitants. Ce village du **Chouf** fait précisément partie du Mont-Liban où l'on fabrique, en outre, avec le même poil, ainsi qu'avec la laine de

UNIVERSITE LIBANAISE
INSTITUT DES SCIENCES SOCIALES
CENTRE DE RECHERCHES

FABRICATION DES TOILES DE TENTES AVEC LES POILS DE CHEVRES DANS LE VILLAGE DE CHHIM

Par
GHAZI CHAABANE

Publications du Centre de Recherches
4
1967